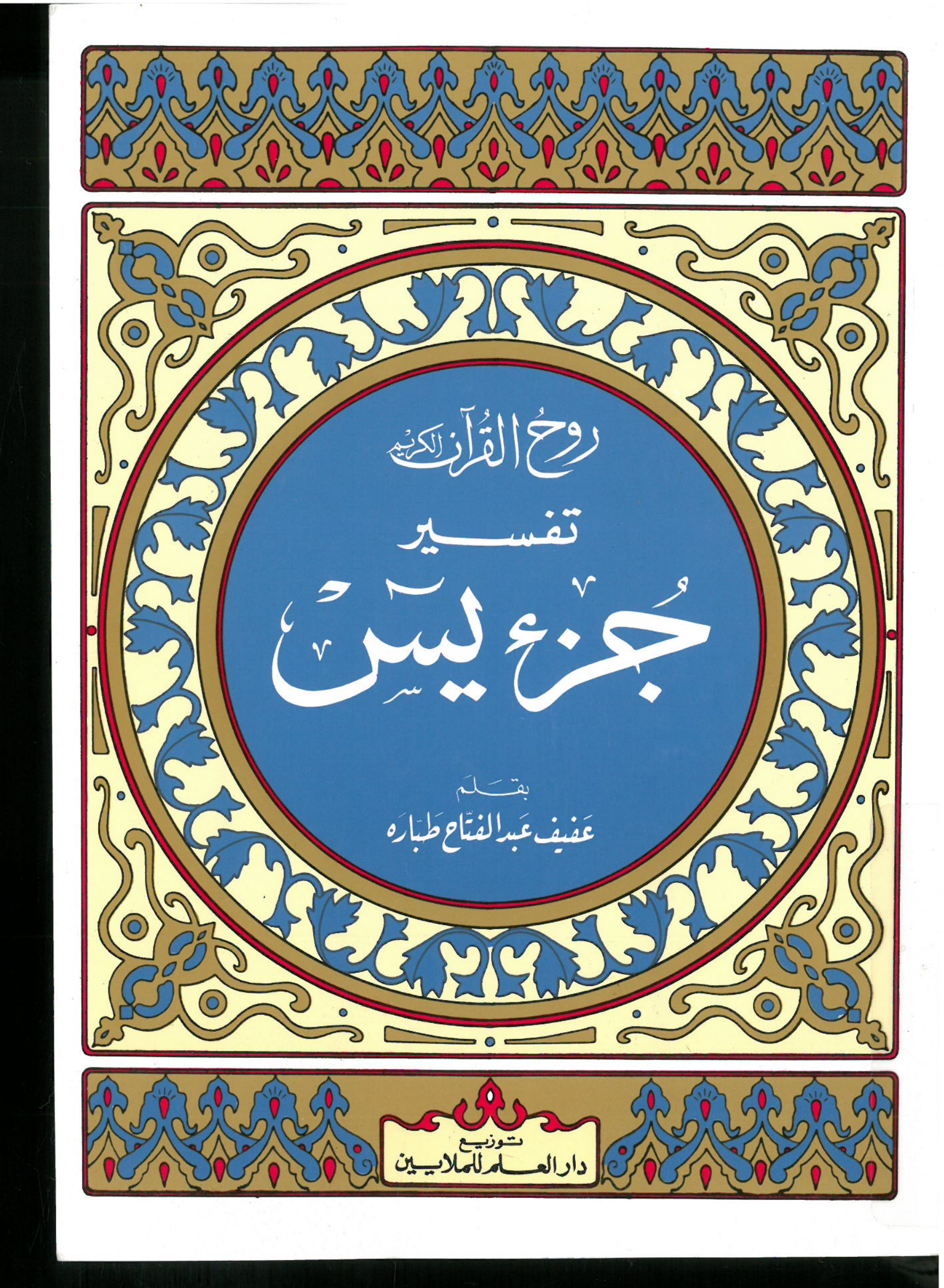

روح القرآن الكريم
تفسير
جزء يس
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسّر أجزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السورة . وهذا الجزء الثالث والعشرون يبتدىء بالآية ٢٨ من سورة يسٓ وينتهي بالآية ٣١ من سورة الزمر . ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للمنفعة فلهذا فسرنا سورة يسٓ كاملة وتركنا تفسير سورة الزمر بكاملها للجزء الرابع والعشرين . وسمينا هذا الجزء « جزء يسٓ » تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء .

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم « جزء عم » و« جزء تبارك » إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها .

روح القرآن الكريم

تفسير
جزء يسٓ

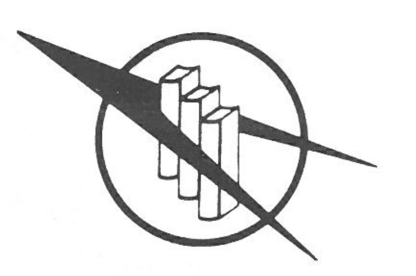
الجزء الثالث والعشرون

بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان



الطبعة الرابعة

نيسان/أبريل ٢٠٠٠

كلمة شكر

أقدم شكري وامتناني إلى الأساتذة الكرام:

القاضي الشيخ حسين غزال
الشيخ شريف سكر
مصطفى قصاص.

على ما قدموه لي من معونة وملاحظات قيمة على هذا الجزء من التفسير.

كما أقدم شكري **لجامعة بيروت العربية** لما قدمته لي مكتبتها العامرة والمشرفون عليها من خدمات كريمة لا تحصى.
راجياً من اللّه أن يتقبل هذا العمل وأن ييسر لي العمل على إكمال تفسير القرآن الكريم

المؤلف

سُورَةُ يس

سميت هذه السورة باسم يّس «ياسين» لافتتاحها بها.

تشتمل هذه السورة على إثبات وحدانية اللّه، ورسالته إلى خلقه بواسطة رسل من البشر، وإلزام الحجة على أهل الضلالة، وبيان أن أعمال الإنسان مدونة محصاة ليحاسب عليها يوم الجزاء.

كما تبين السورة عاقبة الكفر الوخيمة، فتقدم مثالاً لما جرى لمدينة أنطاكيا عندما كذّبت رسل اللّه، واضطهدت من آمن باللّه.

وتهدد السورة المعرضين عن هدى اللّه، الممسكين أيديهم عن الإنفاق على المساكين، وتصف عذاب الكفار في جهنم، ونعيم المؤمنين في الجنة.

وتتعرض السورة لقضية البعث[1] وهو أهم مواضيع السورة فتقدم الدليل على عدم استحالته، وتُقرّبه إلى العقول بأمثلة محسوسة، لافتة الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلّهية المتمثلة بما خلقه اللّه من صنوف الحَبّ والثمر الذي يخرج من الأرض الميتة، ووجود الزوجية في كل شيء، واختلاف الليل والنهار، وتحركات الشمس والقمر بهذا النظام البديع، ومشهد الفلك التي تسير في البحر لمنفعة الإنسان، ووجود الأنعام المسخرة لفائدة الإنسان، وأسرار النطفة التي تتحول إلى إنسان، ومشهد الشجر الأخضر الذي يتحول إلى نار، هذه القدرة الإلّهية التي خلقت كل ذلك وخلقت السماوات والأرض لا يعجزها إعادة الإنسان حياً بعد الممات يوم القيامة.

---

(١) البعث: بَعْث اللّه للموتى أي إحياؤهم، ويوم البعث هو يوم القيامة.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ
فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾
إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾
وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ
فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ

شرح المفردات

يسٓ : وتلفظ (ياسين) وهي اسم من أسماء محمد ﷺ .

لَمِنَ المُرْسَلِينَ : من رسل اللّه الكرام .

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ : طريق مستقيم (دين الإسلام) .

لِتُنْذِرَ قَوْماً : لتخوفهم وتحذرهم من عاقبة الكفر والمعاصي .

حَقَّ الْقَوْلُ : وجب العذاب .

أَغْلالاً : جمع غُل وهو القيد .

مُقْمَحُونَ : المقمح هو الذي يرفع رأسه ويغض بصره .

سَدّاً : حاجزاً ومانعاً .

فَأَغْشَيْنَاهُم : فغطينا أبصارهم وأعميناهم عن الهدى .

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِم : أي يتساوى الأمران عندهم الإنذار وعدم الإنذار .

لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ
فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ
وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾

شرح المفردات

إِنَّمَا تُنْذِرُ : إنما تحصل البُغية بإنذارك وينتفع به .

اتَّبَعَ الذِّكْرَ : اتبع الوعظ .

آثَارَهُم : أعمالهم التي يبقى أثرها بعد وفاتهم .

أَحْصَيْنَاهُ : سجلناه وحفظناه .

إِمَامٍ مُبِينٍ : هو اللوح المحفوظ ويوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه اللّه وقدر أن يعمله .

سُورَةُ يسٓ

ايضاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة مؤكداً أن محمداً رسوله حقاً ، أرسله إلى قومه وإلى الناس جميعاً لينذرهم من عذاب اللّه إن اختاروا طريق الضلال :

﴿يسٓ . وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ . لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١ ـ ٧) .

﴿ يٓس ﴾[1] إسم من أسماء النبي ﷺ وقيل غير ذلك ﴿ وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ﴾ الواو للقسم ، والقرآن مقسم به ، والقسم بالقرآن تنويه بشأنه ، وتعظيم لقدره . وقد وصف اللّه القرآن بالحكيم ، أي الناطق بالحكمة[2] ، أو بمعنى : المحكم الذي لا يعتريه تناقض أو بطلان ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هذه الآية جواب للقسم ، وإن : حرف توكيد ، واللام في لفظة « لمن » هي أيضاً تفيد التوكيد ، فيكون المعنى : أقسم بالقرآن الحكيم وأؤكد أنك يا محمد من جملة الرسل الذين أرسلتهم لهداية الخلق ، وهذا التأكيد على نبوة محمد ﷺ هو رَدّ من اللّه على الكفار حيث قالوا للنبي ﷺ : لست مرسلاً من اللّه .

---

(١) يسٓ ، وتلفظ (ياسين) وهي اسم من أسماء النبي ﷺ والدليل على ذلك قوله تعالى بعد يسٓ : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ . وقيل : يٓس معناه : يا إنسان بالحبشية وفي لغة طيّىء، وأصله في لغة طيّىء يا أنيسين فكثر النداء على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، وقيل : يٓس قسم أقسم اللّه به وهو من أسماء اللّه ، وقيل : إن كلمة يسٓ هي اسم للسورة ، وقيل : إن كلمة يٓس مكونة من حرفين : الياء ، والسين ، فهي من الحروف الرمزية التي افتتحت بها بعض سور القرآن الشريف مثل : آلٓم ، حمٓ ، وغير ذلك .

(٢) الحكمة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم .

وبعد هذا التأكيد على أن محمداً رسول اللّه ، وصف اللّه دعوته بأنها ﴿ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي إنك يا محمد على طريق ونهج مستقيم لا انحراف فيه ولا اعوجاج وهو دين الإسلام ﴿ تَنْزِيلَ[1] العَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ وهذا القرآن منزل من اللّه القوي الغالب لأهل الكفر ، الرحيم بعباده المؤمنين ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً[2] مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ[3] ﴾ أي إن اللّه أرسلك يا محمد لتخوف قومك وغيرهم وتحذرهم من عذاب اللّه إن أصروا على الكفر ، والمراد بالآباء هم الآباء والأجداد الأقربون ﴿ فَهُم غَافِلونَ ﴾ عن الإيمان والرشد ﴿ لَقَدْ[4] حَقَّ الْقَوْلُ[5] عَلَى أَكْثَرِهِم ﴾ أي قد سبق في علم اللّه وجوب العذاب على أكثر هؤلاء الكافرين لسوء فطرتهم ، وفساد جبلتهم ، باختيارهم الكفر على الإيمان ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون بنبوتك يا محمد .

ثم يصور القرآن الكافرين بهذه الصورة المعيبة التي تنبىء عن فساد جِبِلّتهم ، وعدم إذعانهم لدعوة الإسلام :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ .

---

(١) تنزيل : التنزيل يفيد الإنزال مفرقاً مرة بعد أخرى وهكذا القرآن فإنه نزل مفرقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة .

(٢) قوماً : نكرة تفيد العموم .

(٣) ما أنذر آباؤهم : « ما » هنا نافية . وقد تكون « ما » موصولة بمعنى الذي ، أي لتنذر قوماً الذين أنذر آباؤهم . وقد تكون « ما » مصدرية ، بمعنى : لتنذر قوماً إنذار آبائهم وعلى معنى « ما » مصدرية أو موصولة يراد بالآباء آباؤهم الأقدمون من ولد إسماعيل .

(٤) لقد : اللام الداخلة على قد جواب القسم .

(٥) حق القول : المراد بالقول . هو قوله تعالى لإبليس : ﴿لأملأنَّ جهَنّم مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمعين ﴾ ولما كان كفار مكة قد علم اللّه منهم إصرارهم على الكفر وعلى اتباع إبليس فقد وجب عليهم مضمون هذا القول وهذا العذاب .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِم سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَا يُبْصِرون ﴾ (٨ ، ٩) .

فاللَّه يقول بأنه جعل في أعناق هؤلاء الكافرين من قوم محمد أغلالاً[١] وهي جمع غُلّ ، والغل مختص بما يقيد به فتُشد به اليد إلى العنق مع الإحاطة به للتعذيب والتشديد ﴿ فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ فهذه الأغلال عريضة تبلغ بطرفيها الأذقان ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ فهم رافعو رؤوسهم من تأثير هذه الأغلال لا يستطيعون خفضها ، وهذا تمثيل لحال هؤلاء الكافرين الذين لا ينتهجون سبيل الرشاد ويستكبرون عن اتباع الحق ، ولا يطأطئون رؤوسهم له ، والمتكبر يوصف بانتصاب العنق .

ويتابع القرآن وصف هؤلاء الكافرين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً ﴾ أي وجعل اللَّه أمامهم حاجزاً ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِم سدّاً ﴾ وجعل من ورائهم حاجزاً ، والأمام والوراء كناية عن جميع الجهات ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فغطى اللَّه بتلك الحواجز أبصارهم فهم لايقدرون على رؤية شيء ، وهذا تصوير لحال هؤلاء الكافرين المحاطين بسدود من الغي والضلال والتقاليد تحول بينهم وبين الهدى والإيمان ، وتحرمهم النظر في آيات اللَّه وتدبّرها .

وإننا لنرى كثيراً من الجماعات البشرية الضالة ـ في كافة العصور ـ

---

(١) قد تكون الأغلال والسدود من بين أيدي الكافرين ومن خلفهم وصف لحالة الذين أرادوا السوء برسول اللَّه فكف اللَّه أيديهم عن إلحاق الأذى به فقد أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبي يقرأ القرآن في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه (ليعاقبوه) وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا هم لا يبصرون فجاءوا إلى النبي فقالوا : ننشدك اللَّه والرحم . . . فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت سورة ﴿ يسٓ . والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ .

ينطبق عليها هذا الوصف ، فإذا قُدِّم لها شرْعُ اللَّه وهديه بوسائل الإقناع والمنطق ، نراها ترفض هذا الهدى إيثاراً منها لما هي عليه من عادات وتقاليد بالية ، ونظم فاسدة تحجب أنظارهم عن رؤية الحق ثم الانقياد له .

وعن مدى تشبثهم بالباطل يخبر اللَّه رسوله محمداً بأن إنذاره لهؤلاء الكافرين سيذهب سدى لأنهم لن يستجيبوا لدعوته :

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أم لم تُنذِرْهُم لا يُؤْمِنُونَ . إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٠ ـ ١١) .

أي سيان عند هؤلاء الكافرين تخويفك لهم يا محمد من عذاب اللَّه وعدمه ، فهم لا يصدقون بما جئت به من الهدى ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ ﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ والذكر هنا قد يراد به القرآن أو الوعظ ، والمعنى : إنما ينفع إنذارك من اتبع القرآن ، أو اتعظ بإنذارك ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي وخشي اللَّه المتصف بالرحمة وهو لم يره ، أو خاف اللَّه في خلوته بعيداً عن أعين الناس ، هذا المؤمن : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ والتبشير إخبار فيه سرور ، أي فبشر يا محمد من اتبع القرآن وخشي الرحمٰن بالغيب بأمرين : بالعفو عن ذنوبه التي سلفت ، وبثواب حسن في الآخرة وهو الجنة .

ثم يبيّن القرآن بأن إنذار النبي ﷺ للكافرين ، وبشارته للمؤمنين هو بسبب وجود حياة أخرى بعد الموت يُجازى فيها الإنسان على عمله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (١٢) .

فاللّه يخبرنا بأنه يحيي الموتى يوم القيامة ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ وتكتب الملائكة ما عملوا في الدنيـا من خير أو شـرّ بأمـر اللّه ﴿ وآثَارَهُمْ ﴾ وتكتب الملائكة أيضاً ما تركوه بعـد وفاتهم من أثـر حسن ، كوقفٍ تبـرعوا بـه يعود ريعـه على الفقراء ، أو علم ينتفـع به من كتب وغيـرها ، أو بنـاء مستشفى ومستـوصف للمعوزين ، كمـا تكتب الملائكـة ما تـركوه من أثـر سيىء بما استحـدثوه من أنـواع الشرّ والفسـاد في الأرض من أنـديـة للقمـار ، وملاهٍ يُعصى اللّه فيهـا ، أو ما استحـدثوه من قـوانين فيهـا ظلم للعباد ، وكتـابـة ما قدّموا ، وآثارهم ، هو كناية عن مجازاتهم عليه إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ ﴿ وَكُلَّ شَيءٍ أَحْصَيْنَـاهُ في إِمَامٍ مُبينٍ ﴾ وكـل شيء من أعمال العبـاد وغيرها كائناً ما كان أثبته اللّه وحفظه في كتاب موضـح فيه كـل شيء ، قيل المراد به ما يسمى : اللوح المحفوظ الذي ورد ذكره في القرآن ، ويوصف بأنه مستودع مشيئات اللّه تعالى (١) .

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من سنّ في الإسلام سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وِزْرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » رواه مسلم .

وَٱضْرِبْ لَهُم
مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ
ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾
قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ
﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

شرح المفردات

فَعَزَّزْنَا : فقوينا وشددنا .

البَلَاغُ المبينُ : تبليغ رسالة اللّه بالأدلة الواضحة .

تَطَيَّرْنَا بِكُم : تشاءمنا منكم إن أصابنا شرٌ فهو منكم .

لَنَرْجُمَنَّكُم : لنقتلنكم رجماً بالحجارة .

طائِرُكُم مَعَكُمْ : سبب شؤمكم معكم وهو كفركم .

أئن ذكِّرْتُم : أئن وعظتم تشاءمتم .

مُسْرِفون : مفرطون في المعاصي والضلال .

يَسْعَى : يسرع في مشيه .

المرسَلِين : رسل اللّه .

فَطَرَني : خلقني وأنشأني من العدم .

ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٧) * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ (٢٩) يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)

شَرح المفردات

لا تُغْني : لا تدفع عني .

إنْ كَانَت إلاّ صَيْحَةً وَاحِدَةً : أي ما كان هلاكهم إلاّ بصيحة واحدة .

يَا حَسْرَةً : يا نَدامة ويَا أسفاً .

كَمْ أَهْلَكْنَا : (كم خبرية دالة على الكثرة) أي كثيراً ما أهلكنا .

القُرُون : جمع قرن وهو أهل زمان واحد (الأمم السابقة) .

وَإنْ كُلٌّ : إن (نافية) أي ما كل الأمم .

لَمَّا جَميعٌ : إلاّ مجموعون .

مُحْضَرون : يحضرون بين يدي اللّه للحساب والجزاء .

تابع سُورَة يس

وبعـد أن بين اللّه أن أعمالَ العبـاد محصيةٌ ، أمـر رسولـه محمداً بـأن يحـذّر قومـه من عذاب اللّه لئـلا يحل بهم مثـل ما حـلّ بتلك القريـة التي رفضت دعوة الرسل :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَاالْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَـذَّبُـوهُمَـا فَعَـزَّزْنَـا بِثَـالِثٍ فَقَـالُـوا إِنَّـا إِلَـيْكُـمْ مُرْسَلُونَ ﴾ (١٣ - ١٤) .

فاللّه تعالى يقول : اذكر يا محمد للكافرين من قومك مثلاً لعاقبة الكفر الوخيمة تلك القرية[١] إذ جـاءها المُرسَلُون[٢] تدعـو أهلها إلى عبـادة اللّه وحـده وترك عبـادة الأصنام ﴿ إِذْ أَرْسَلْنـا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ إذ أرسل اللّه لأهـل تلك القرية رسولين معاً فكذبوهما ﴿ فَعَزَّزْنَـا بِثَالِثٍ ﴾ فقـواهما اللّه بـرسول ثالث ، فقال هؤلاء الرسل الثلاثة لقومهم : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُـرْسَلُونَ ﴾ أي إننا مرسلون إليكم من عند ربكم لهدايتكم .

أجـاب أهل هـذه القريـة هؤلاء الرسـل الثلاثـة ، منكرين بـأنهم رسل اللّه :

﴿قَالُوا : مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَـا وَمَا أَنْـزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيءٍ إن أنتم إلاّ تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥) .

أي قالوا للرسل : ما أنتم إلا أناس مثلنا فلا مزية لكم علينا ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شيءٍ ﴾ وما أنـزل اللّه المتصف بالـرحمة من رسـالة ولا كتـاب

(١) قيل هي أنطاكيا .

(٢) قيل إنهم أنبياء أرسلهم اللّه . وقيل هم رسل لعيسى بن مريم بأمر اللّه .

إلى الناس ﴿ إنْ[١] أَنْتُم إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ ما أنتم إلاّ تكذبون بأنكم رسل من اللّه . وظاهر قولهم يقتضي إقرارهم بالألوهية ، لكنهم ينكرون رسالة اللّه للبشر بواسطة بعض الناس .

وبعد هذا الرفض من أهل القرية عاد الرسل مؤكدين لهم بأنهم رسل من اللّه :

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٦ ، ١٧) .

لقد قال الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ استشهدوا بعلم اللّه ، وهو يجري مجرى القسم ، ثم أكدوا صدقهم بقولهم : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ[٢] ﴾ أي إننا مرسلون من اللّه إليكم لهدايتكم ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ وما مهمتنا إلاّ تبليغكم رسالة اللّه بالأدلة الواضحة .

لم يقتنع أهل القرية بكلام الرسل بل قابلوهم بالتهديد والوعيد :

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨) .

لقد قال أهل القرية للرسل : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي إننا تشاءمنا[٣] منكم فإن أصابنا بلاءٌ وشرٌ فإنما هو حاصل من قدومكم علينا ﴿ لَئِنْ[٤] لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ ونقسم إن لم تكفوا عن بَثّ دعوتكم فينا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ لنرمينّكم

(١) إن : بمعنى « ما » النافية .

(٢) ﴿ إنا إليكم لمرسلون ﴾ إن : حرف توكيد ، واللام في ﴿ لمرسلون ﴾ تفيد التأكيد أيضاً .

(٣) قيل إن تشاؤمهم كان بسبب احتباس المطر عنهم ،وقيل أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل .

(٤) لئن : اللام في لئن لام القسم .

بالحجارة إيذاءً أو قتلاً ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وليصيبنكم مِنّا عذاب شديد الألم ، هذا وقد كان الرجم بالحجارة قديماً أداة من أدوات القتل والتعذيب .

أجاب الرسل بجرأة غير مبالين بتهديدهم :

﴿ قَالُوا : طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ (١٩) .

قال الرسل لأهل القرية : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي سبب شؤمكم موجود معكم وليس منا ، وهو نابع من سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم ﴿ أَئِنْ[١] ذُكِّرْتُمْ ﴾ أي هل إن وعظتم بما فيه سعادتكم تتشاءموا منا وتهددونا بالعذاب ﴿ بَلْ[٢] أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ بل أنتم قوم مسرفون في العصيان متجاوزون الحق والعدل .

ولئن رفض أهل تلك القرية دعوة الرسل فقد كان هناك رجل يسكن في مكان ناءٍ في المدينة آمن بدعوتهم وعلم ما يتهددهم من خطر فهب مسرعاً إلى قومه ناصحاً إياهم مدافعاً عن الرسل :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المدينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُم أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢٠ ـ ٢١) .

لقد جاء هذا الرجل[٣] من أبعد مكان من المدينة ، ويُروى أنه كان

(١) أئن : الهمزة الأولى للاستفهام وإن للشرط وجواب الشرط مضمر تقديره : تطيرتم .

(٢) بل : حرف إضراب يدل على الانتقال من كلام إلى آخر .

(٣) يروى أن اسمه حبيب النجار من أهالي أنطاكيا وكان يعمل في صناعة الحرير ، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند باب من أبواب المدينة قاصياً ، وكان مؤمناً ذا صدقة ، يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين ، فيطعم نصفاً عياله ، ويتصدق بنصف ، فلم يهمه سقمه ولا عمله ولا ضعفه عن عمل ربه ، فلما أجمع قومه على قتل الرسل جاء يسعى إليهم يذكرهم باللّه ويدعوهم إلى اتباع الرسل .

في غار من الجبل يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر إيمانه وقال لقومه : ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي اتبعوا الهدى الذي جاءكم به هؤلاء الرسل ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ اتبعوا وأطيعوا من لا يطلب منكم أجراً وجزاءً على نصحكم وإرشادكم[1] ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أي مهتدون إلى الحق في دعوتهم .

لقد قال هذا الرجل ذلك بعد أن علم أن هؤلاء الرسل لم يطلبوا الأجر[1] على دعوتهم ، وهذا أمر يجب أخذه بعين الاعتبار .

ثم شرع هذا الرجل يستميل قومه إلى اتّباع الرُّسل وينصحهم ، فأبرز ذلك النصح في صورة نصحه لنفسه ليتلطف بهم في الوعظ ، مشعراً إياهم بأنه يريد لهم من الخير ما يريده لنفسه فقال :

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُم شَيئاً وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢٢ ـ ٢٤) .

فهذا الرجل المؤمن يخاطب قومه : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَني ﴾ وأي شيء يمنعني أن أعبد الله الذي خلقني وأوجدني من العدم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وإليه تردون بعد الممات فيجازيكم يوم المعاد على أعمالكم ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ استفهام فيه إنكار ونفي ، أي هل يصح أن أتخذ من دون الله آلهة ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ ﴾ إن أراد الله أن يضرني

(١) وهكذا كل دعوة إلى الله في الأرض يجب أن تتجرّد من الأجر والجزاء . وهذا ما سار عليه أنبياء الله فعلى كل من يرغب في أن يسير على سيرتهم أن يجعل هذا المفهوم نصب عينيه ، وأن يجعل دعوته إلى الله بدون مقابل احتساباً لوجه الله ليكون لها التأثير الفعال في نفوس السامعين .

﴿ لا تُغْنِ عني شَفَاعَتُهُمْ شَيئاً ﴾ لا تنفعني شفاعة هؤلاء الآلهة عند الله شيئاً على فرض أنهم سيشفعون ﴿ وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ وليس عندهم قوة لينقذوني من العذاب والبلاء إن نزل بي ﴿ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ إني إذا عبدت آلهة غير الله أكون في ضلال واضح ظاهر .

وبعد ذلك جهر هذا المؤمن بكلمة الحق مدويّة معلناً إيمانه غير مبال بالخطر الذي يتهدده :

﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي رَبِّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٥ ـ ٢٧) .

فهذا المؤمن يقول : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ يحتمل أنه قال مقالته هذه لقومه ليعلمهم إيمانه بالله ، ويحتمل أنه قالها للرسل . وعلى فرض أنه قالها للرسل فيكون المعنى : إني آمنت بربكم واتبعتكم فاسمعوا قولي لتشهدوا لي بذلك عند ربي .

وقد ذكر أنه لما أعلن إيمانه على أهل القرية وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات ، وفي رواية أن مقتله كان رجماً بالحجارة ، ويُروى غير ذلك في مقتله .

فلما مات جاءته البشرى من الله على لسان الملائكة : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فدخل دار النعيم حيًّا يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها وتعبها ، عندئذٍ تمنى على الله أن يعلم قومه بما لقيه من كرامة الله وفضله : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي رَبِّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أي يا ليت قومي يعلمون السبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي وأكرمني بدخول الجنة ، وإنما تمنّى ذلك ليعلم قومه بحاله

وليحملهم ذلك على التوبة من الكفر وعلى الطاعة لما جاء به هؤلاء الرسل من الهدى ، وليعلموا أنهم كانوا في خطأ عظيم من أمره ، وأنه كان على صواب في نصحه لهم . وتأمل كيف تمنى لقومه الخير بعد قتلهم له وبعد أن أحياه اللّه وأدخله الجنة ، وهذه مزية أولياء اللّه الصالحين لا يقابلون السيئة بالضغينة وإرادة السوء والانتقام ، وقد قال ابن عباس في ذلك الرجل : نصح القوم في حياته ونصحهم بعد مماته .

وبعد أن قتل أهل القرية هذا الرجل المؤمن حلّ غضب اللّه عليهم :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ . يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِءونَ ﴾ (٢٨ ـ ٣٠) .

فاللّه سبحانه يقول : إنه ما احتاج في إهلاك هؤلاء القوم ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد مقتله ﴿ مِنْ جُنْدٍ ﴾ من ملائكة لتعذيبهم أو إهلاكهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ وما كان اللّه لينزل ملائكة ، بل كان أمرهم أصغر وأحقر من ذلك ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ إن : نافية بمعنى ما ، أي ما كانت عقوبتهم إلّا صيحة واحدة صاح بها الملك جبريل ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[1] فإذا هم ميتون تشبيهاً لهم بالرماد الخامد الذي انتفت الحرارة عنه .

---

(١) نستطيع أن نضرب مثلاً بانفجار القنبلة الذرية ، فالمعروف أن معظم ضحايا القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على اليابان في أواخر الحرب العالمية الماضية كانت بسبب موجة التضاغط الشديدة التي صحبت الانفجار على هيئة صيحة واحدة عارمة تهلك وتحرق ضحاياها . وتأمل لفظة (خامدون) التي جاءت عقب الصيحة وفيها دقة في التعبير ، يقال : خمدت النار خموداً : سكن لهبها ولم يطفأ جمرها ، وقوم خامدون هم ساكتون قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد من تأثير الصيحة .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ ﴾ الحسرة : هي الغم على ما فات ، والندم الشديد عليه ، والمراد بالعباد هنا مكذبو الرسل ، والمعنى : يا لشدة ندامة العباد على أنفسهم على ما ضيعوا من أمر اللّه ، وفرطوا في حقه ، ويا حسرتهم على أنفسهم عندما يعاينون عذاب اللّه يوم القيامة ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ ما يجيئهم من رسول من عند اللّه يدعوهم إلى الهدى إلّا كذبوه واستهزأوا به .

وبعد أن أعطى اللّه مثلاً عن عاقبة الكفر والاستهزاء بالرسل عقّب على ذلك بإنذاره لكفار مكة :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ القُرونِ أَنَّهم إِلَيْهِم لا يَرْجِعُونَ . وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (٣١ ـ ٣٢) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ أَلَمْ يَرَوا[1] كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أي ألم يعتبر هؤلاء الكفرة بالأمم الكثيرة السابقة التي أهلكناها ﴿ أنهم إِلَيْهِمْ لا يرجعون ﴾ أنهم لا يعودون كرة أخرى إلى حياتهم الدنيا بعد هلاكهم ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا[2] جميعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي ما كل الأمم الماضية والآتية إلّا مجموعون يوم القيامة محضرون للحساب ، فاللّه سبحانه لا يترك الكافرين بعد هلاكهم في الدنيا بل يبعثهم أحياء يوم القيامة للحساب والجزاء .

---

(١) يروا : ليست بصرية وإنما هي للاعتبار : أي ألم يعلموا ويعتبروا .

(٢) وإن كل لمّا : إن : هي نافية . وكل : بمعنى كلهم . ولمّا : بمعنى إلّا .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ
مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن
تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم
مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ
يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

شرح المفردات

سُبْحَان : سبحان الله معناه تعظيم الله وتنزيهه عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به .

الأَزْوَاج : مفردها زوج ويطلق على الذكور والإناث وعلى الأصناف والأنواع .

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهار : نكشف وننزع ضوءه عنه .

لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا : لتصل إلى زمان تستقرّ فيه وهو يوم القيامة .

مَنَازِلَ : جمع منزل والمراد هنا المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة .

فَلَكٍ : مدار الشمس أو القمر .

يَسْبَحُونَ : يسيرون في الفضاء مسيرة الفلك في البحر .

المَشْحُونِ : المملوء ، المثقل .

فلا صَرِيخَ لَهُم : فلا مغيث لهم ولا مجير .

تابع سورة يس

بعد ذلك يتوجه القرآن إلى الإنسان ليفتح منافذ عقله وفكره في سجل الكون المفتوح عارضاً أمامه الأدلة والبراهين على وحدانية الله وقدرته الشاملة في هذا الكون ، وبالتالي القدرة على إعادة الإنسان حيّاً بعد الموت ، وقد تنوعت هذه الأدلة والبراهين مأخوذة من مظاهر الطبيعة أرضاً وجواً ، وإنساناً وحيواناً ، في أساليب شتى من البيان ، وتبدأ هذه الأدلة بلفت الأنظار إلى عالم النبات :

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٣ - ٣٥) .

فالله سبحانه يقول : ودليل لهؤلاء المشركين على قدرتنا على البعث والنشور هو الأرض الجدباء التي نحييها بالماء ونخرج منها أنواع الحبوب ليقتات به الناس ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي وأنشأنا فيها بساتين من النخيل وبساتين من كروم العنب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ وشققنا في الأرض من عيون الماء ما يروي شجرها ويخرج ثمارها ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر ، أو بمعنى : ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِم﴾ وما عملته أيديهم من الغرس والسقي أو العصير والدبس ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فهلّا يشكرون الله على ما تفضل به عليهم من هذه النعم .

ثم نزه الله نفسه عن كل نقص وعن وجود شريك له :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) .

فاللَّه سبحانه نزه نفسه عن كل ما وصفه به المشركون مما لا يليق به من الصفات فهو سبحانه ﴿ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ فالأزواج جمع زوج وهو الذكر والأنثى ، ويقال لكل ما يقرن بآخر مماثلاً له أو مضاداً : زوج ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي أن اللَّه جعل الذكورة والأنوثة في النبات والإنسان ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي وخلق الأزواج في أمور أخرى لم يطلعهم عليها في وقت نزول القرآن[1] .

ويتابع القرآن ذكر الأدلة على عظمة القدرة الإلَهية مأخوذة من تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر :

﴿ **وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (٣٧ ـ ٤٠) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَآيَةٌ[2] لَهُمُ اللَّيْلُ ﴾ أي وعلامة لهم دالة على قدرة اللَّه وعظمته وإبداعه في أمور الكون هي الليل ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أي نكشف

(١) بعد نزول القرآن بمدة طويلة اكتشفت الكهرباء التي تحتوي على سالب وموجب ، ثم اكتشف العلماء طبيعة الذرة فوجدوا في نواتها عدداً من البروتونات بها شحنة كهربائية موجبة يدور حولها عدد من الإلكترونات شحنتها الكهربائية سالبة ، كما اكتشف بواسطة المراقب عدد ضخم من النجوم المزدوجة يدور كل منهما حول الآخر ، وبعض الفلكيين يقرر بأن نصف جميع النجوم الموجودة في الفضاء هي نجوم مزدوجة وهذا ما جاء في كتاب (النجوم) تأليف آن تري هوايت ترجمة اسماعيل حقي .

(٢) آية : الآية بمعنى العلامة والدليل .

وننزع عنه النهار ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ فإذا هم داخلون في الظلام ، وظاهر هذا التعبير يشعر بأن النهار طارىء على الليل[1] .

وتأمل هذا التعبير الدقيق الذي أعطاه القرآن لنزع النور وهو « السلخ » على طريق الاستعارة ، وهذا اللفظ يستعمل غالباً لإزالة جلد الشاة أو الحية ، يقال : شاة سليخ إذا كشط عنها جلدها ، ولما كان انسلاخ الجلد عن اللحم يحصل شيئاً فشيئاً جعل انفصال النهار عن الليل شيئاً فشيئاً حتى يتكامل الظلام .

﴿ وَالشَّمْسُ[2] تَجْرِي ﴾ أي وعلامة للمشركين ودليل لهم على وحدانية اللَّه وقدرته على البعث هي خلقه الشمس التي تسير سيراً سريعاً في الفضاء ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أي للمكان المخصص لها في الفضاء . أو لحد معين ينتهي إليه دورها وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

والملفت للنظر هو قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي ﴾ أي تسير سيراً

(١) الفضاء الكوني مظلم رغم وجود الشمس والنجوم فيه ، فضوء النهار إنما يحدث فقط في طبقات الغلاف الجوي للأرض القريبة من سطحها ، وإن سبب ذلك ظاهرة طبيعية تسمى التناثر أو التشتت لأشعة الشمس عندما تقابل جو الأرض وهي طبقة لا يعدو سمكها ١٥٠ ـ ٢٠٠ كيلو متر فقط . فالنور يغطي الظلام كما يغطي جلد الحيوان لحمه ، وهذا الجلد قليل السماكة بالنسبة لجسم الحيوان وهكذا الغلاف الجوي للأرض الذي يسبب النور للأرض هو قليل السماكة بالنسبة للأبعاد الهائلة بين الأرض والشمس ، فتأمل دقة التعبير القرآني .

(٢) والشمس معطوفة على الليل في قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل ﴾ والتقدير : وآية لهم الشمس .

سريعاً ، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة في الفضاء[١] .

﴿ وَالْقَمَـرَ قَدَّرْنَـاهُ مَنَازِلَ ﴾ أي وعـلامة دالـة لهم على وحـدانيـة اللّه وقدرته على البعث هو القمر ، الذي قدّر اللّه لسيره منازل ، والمنازل جمع منزل والمراد به هنا المسـافة التي يقـطعها القمـر في يوم وليلة وهي ثمـانية وعشرون منزلاً ، لأن القمر يظهر في الأفق في ثمان وعشـرين ليلة ويختفي ليلتين إذا كـان الشهر ثـلاثين يومـاً ، ويختفي ليلة إذا كان تسعـة وعشـرين يوماً[٢] .

وبعد تبيان أن القمر قدره اللّه منازل عقب القرآن على ذلك : ﴿ حَتَّى

(١) إن شمسنا تابعة لمجرة اسمها درب التبانة التي تحتوي تقريباً على ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم وشكل هذه المجرة شكل الرغيف استدارة وتقبباً ، وشمسنا تقع من هذه المجرة على بعد ٢٥,٠٠٠ سنة ضوئية من مركز هذه المجرة أو محورها . وهذه المجرة بنجومها تدور حول محورها أو مركزها وسرعة هذه النجوم تقل كلما بعدت عن محور الدوران ، وقدرت سرعة شمسنا بـ ١٧٠ ميلاً في الثانية ، وليس هذا فحسب فالشمس تتحرك تحركاً محلياً بالنسبة لما حولها من النجوم وهي تسير بسرعة ١٩ كيلو متراً في الثانية في اتجاه نقطة تقع في مكان ما في كوكبة الجاثي كما ذكر ذلك الدكتور جامو في كتابه (الشمس) هذا مع العلم أن الكواكب التابعة للشمس ومنها أرضنا والقمر فإنها تسير مع الشمس حيثما سارت .

(٢) القمر تابع للأرض أي أنه يدور في مدار حول الأرض كما تدور الأرض حـول الشمس ، وتستغرق دورته الكاملة حول الأرض ٢٩ يوماً ونصف اليوم أي ما يقرب من شهر ، ولما لم يكن للقمر نوره الذاتي بل يضيء بانعكاس نور الشمس عليه فإنه يبدو لنا أنه يغير شكله في الفضاء وهو يدور حول الأرض ، فإذا كان القمر في نفس القسم من الفضاء حيث تكـون الشمس كان جانبه المظلم هو الذي يواجهنا ولذلك لا ينعكس أي نور نراه به وهذا ما يدعى بالقمر المحاق ، وفي الليل التالي يكون القمر قد تحرك قليلاً في مداره فاسحاً لحرف رقيق بشكل هلال أن يعكس نور الشمس ، وفي الليل التالي يتسع الهلال ويستمر ذلك ليلة بعد ليلة حتى ينتقل إلى جهة مقابلة للشمس يمكن منها أن نرى قرص القمر كله يعكس نور الشمس عند ذلك ندعوه بالبدر ثم يعود إلى النقصان ليلة بعد ليلة إلى أن يتحول هلالاً رقيقاً ، فقمراً محاقاً مرة أخرى .

عَـادَ كَالْعُـرْجُونِ الْقَـدِيمِ ﴾ أي صار القمـر في أواخر سيره في رأي العين عندما يصير هلالاً ، كـأصل عنقـود النخل الـذي ييبس ويعوج وتنقـطع منه الأغصـان التي عليهـا البلح وهـو أصفـر اللون . ووجـه الشبـه بين الهـلال والعرجون هو الاصفرار وقلة العرض والانحناء في كل منهما .

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَـا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَـرَ ﴾ أي لا يصح للشمس وغيـر مسموح لها أن تدرك القمر وتجتمـع معه لأنـه تعالى حـدد لكل منهمـا وقتاً معيناً يظهـران فيه ﴿ وَلَا اللَّيْـلُ سَابِقُ النَّهَارِ[١] ﴾ أي كل من الليـل والنهار يجيء بوقته ولا يسبق صـاحبه ﴿ وَكُـلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وكـل من القمر والشمس في مدار يجري فيه لا يتخطاه .

ويتـابـع القـرآن بيـان قـدرة اللّه سبحـانـه فيلفت الأنـظار إلى السفن المسخرة في البحر لمنفعة الناس :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَـا ذُرِّيَّتَهُمْ في الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَـا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُـونَ . وَإِن نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَـرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَـذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ (٤١ ـ ٤٤) .

(١) يرى الشيخ متولي الشعراوي في هذه الآية إثباتاً لكروية الأرض فيقول ما ملخصه : العرب كانوا يقولون إن الليل يسبق النهار ، واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس فجاء القرآن ينفي أن الليل يسبق النهار بقوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ وإذا كان العرب يقولون إن الليل يسبق النهار فمعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل ، وبتعبير آخر إن الليل والنهار يوجدان معاً في وقت واحد على الأرض وهذا لا يتأتى إلّا إذا كانت الأرض كروية ، فحين خلق اللّه الشمس والأرض وجد الليل والنهار معاً فنصف الأرض المواجه للشمس صار نهاراً والنصف الآخر صار ليلاً ثم دارت الأرض فأصبح الليل نهاراً والنهار ليلاً وهكذا دواليك . . فلو أن الأرض مبسوطة غير كروية فإن الأمر لا يخرج عن حـالتين ، الحالـة الأولى إن اللّه خلق الشمس مواجهة للأرض المسطحة وفي هذه الحالة يكون النهار موجوداً أولاً ، أو إنه سبحانه خلق الشمس غير مواجهة لسطح الأرض وفي هذه الحالة يكون الليل موجوداً أولاً .

أي ودليل للمشركين على قدرة اللّه أيضاً ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي أنه سبحانه حمل بني الإنسان ﴿ في الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ في السفن المملوءة بهم وبأمتعتهم وأرْزاقهم .

والذرية : هي النسل وتطلق على الأولاد كما تطلق على الآباء ، فإذا كان المراد بالذرية الأبناء خاصة فيكون المراد هو الامتنان على الناس إذ يحملون معهم في السفن أبناءهم إذا سافروا أو يرسلونهم للإبحار في السفن للسفر أو التجارة ، والسفن اليوم من أهم سبل المواصلات في العالم ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أي وخلق اللّه من مثل ما يركبونه في الفلك مراكب أخرى قد يكون سفناً وقد يكون شيئاً آخر[1] .

وإذا كان المراد بالذرية الآباء[2] فيكون المقصود بها الذرية التي حملها نوح معه في سفينته وهي التي أنجاها اللّه من الغرق ، وهؤلاء المشركون وغيرهم من المؤمنين كانوا من نسلهم وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أي وخلقنا لهم من مثل تلك السفينة ما يركبون وهي الإبل ويطلق عليها عند العرب سفائن البر .

وبعد الكلام على السفن عقب القرآن على ذلك : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ أي إن شاء اللّه يغرقهم وهم يركبون السفن ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾

---

(١) لم يعين القرآن نوع ما يركبونه للإشارة إلى ما سيظهر في عالم الوجود من أدوات الركوب التي ألهم اللّه الإنسان لصنعها مثل الطائرات فهي شبيهة بالفلك فهي تسبح في الفضاء كما تسبح الفلك في الماء وقد أضاف اللّه الخلق له لأن الإنسان الذي صنعها مخلوق من اللّه الذي وهبه العقل والقدرة على الابتكار وهذه السفن والطائرات تصنع من المواد التي خلقها اللّه سبحانه .

(٢) سمي الآباء ذرية لأن منهم ذرء الأبناء والذرية تطلق على الآباء والأبناء والأولاد .

فلا معيث لهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ ولا منقذ ينقذهم وينجيهم من الغرق ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ إلّا أن تتداركهم رحمة اللّه ، وإلّا أن تكون لهم بقية من أجل ليمتعوا بحياتهم فيؤخر اللّه موتهم إلى أن يحين الوقت المحدد لانتهاء أعمارهم .

فالإنسان مهما بنى من السفن الكبيرة المزودة بجميع وسائل الأمان فإنها عرضة للغرق ، وكثير من السفن غرق فعلاً بمن فيها ، إما من تأثير الأمواج العاتية أو من اصطدامها بجبال الثلج[1] ، أو بفعل الحروب والقذائف المدمرة .

---

(١) وهذا ما حصل للباخرة الضخمة تيتانيك التي قال عنها صانعوها : لا تغرق ولا تحرق .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

شرح المفردات

يَخِصِّمُونَ : يختصمون .

وَنُفِخَ في الصُّور : ونفخ في البوق .

الأجْدَاثِ : القبور واحدها جدث .

يَنْسِلُونَ : يسيرون مسرعين .

شُغُلٍ : نعيم عظيم يشغلهم عما سواه .

فَاكِهُونَ : ناعمون بطيب العيش مسرورون .

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

شرح المفردات

مَا يَدَّعُونَ : ما يتمنون ويشتهون .

امتازوا : انفصلوا وانعزلوا عن المؤمنين .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم : ألم أوصكم وآخذ عليكم العهد .

جبلاً : خلقاً .

اَصْلَوْهَا : ادخلوها وقاسوا حرها .

نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم : نطبع على أفواههم فلا يستطيعون الكلام .

لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِم : لصيرناها ممسوحة لا يرى لها شق أو أثر .

فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ : فبادروا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه .

فَأَنَّى ؟ : فكيف ؟

لَمَسَخْنَاهُمْ : لحولنا خلقتهم إلى قردة أو خنازير أو جماد .

مَكَانَتِهِم : مكان اجتراحهم للمعاصي .

مضيّاً : ذهاباً إلى مقاصدهم .

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المشركين وإعراضهم عن هدى اللَّه ، واحتجاجهم بالمشيئة الإلَهية للتملص من إنفاق بعض أموالهم على المحتاجين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ [1] اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٤٥ ـ ٤٧).

فالكافرون إذا قيل لهم من قِبَلِ رسول اللَّه ووحيه : ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي اتقوا عقوبة ما بين أيديكم من ذنوبكم وكفركم بالتوبة منها وطاعة اللَّه ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي وما ينتظركم من العذاب المعد لكم في الآخرة إن بقيتم على كفركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لعل اللَّه باتقائكم ذلك يرحمكم وينجيكم من عذابه ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي وما تأتي هؤلاء المشركين من حجة من حجج اللَّه وعلامة دالة على وحدانية اللَّه وصدق رسوله محمد ﷺ ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ إلّا كانوا مائلين عنها لا يتأملونها ولا يقبلونها ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهم أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وإذا أمروا بالإنفاق من مالهم الذي رزقهم اللَّه به وأن يؤدوا منه ما فرض عليهم للمساكين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ لقد قالوا استهزاءً : أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين حرمهم اللَّه من الرزق ، لا لن نفعل ولو شاء اللَّه لأغناهم ونحن بعدم الإنفاق عليهم

(1) جواب ﴿ إذا قيل لهم ﴾ محذوف يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ إلّا كانوا عنها معرضين ﴾ .

نوافق مشيئة اللَّه على تركهم في عوزهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا في ضَلَالٍ مُبينٍ ﴾ ما أنتم أيها القوم الذين تأمروننا بالإنفاق على المساكين هؤلاء إلّا في ضلال واضح غاية الوضوح .

فالمشركون سمعوا المسلمين يقولون : إن الرزاق هو اللَّه ، وأنه يغني من يشاء ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بقولهم هذا إحراج المسلمين فقالوا : نحن نوافق مشيئة اللَّه فلا نطعم من لم يطعمه اللَّه ، وهذه مغالطة ومجادلة بالباطل ، فإن اللَّه أغنى بعض خلقه امتحاناً لهم ليتبين مدى ثباتهم على إيمانهم وطاعتهم لربهم ورحمته بعباده ، وأفقر بعض خلقه امتحاناً لهم ليختبر سبحانه مدى التراحم والتعاطف بين الخلق ، وهذه مشيئة اللَّه في خلقه ، لا المشيئة التي يتعلّل بها المشركون للبخل بأموالهم على المحتاجين ، فالواجب تنفيذ أمر اللَّه وعدم التعرض للمشيئة الإلَهية ، لأنها ليست من اختصاصات البشر ، وهي فوق مستوى عقولهم .

ثم يتحدث القرآن عن إنكار المشركين للقيامة فيعطي للمشركين صورة عن بعض وقائعها وأهوالها :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ . مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤٨ ـ ٥٠) .

فالمشركون يقولون للمؤمنين على وجه الاستهزاء والسخرية : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي متى يوم القيامة التي تعدوننا به إن كنتم صادقين فيما تقولونه ؟ ويأتي الجواب مشهداً من مشاهد يوم القيامة : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ النظر هنا بمعنى الانتظار ، أي ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي نفخة الملك إسرافيل في البوق التي يصعق من جرائها من

في السموات والأرض ، ولما كانت هذه الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[١] ﴾ تهلكم وهم يختصمون ويتنازعون في متاجرهم وأسواقهم وأنديتهم لا يخطر ببالهم شيء من اقتراب حدوثها ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي فلا يستطيع أحدهم أن يوصي الآخر بشيء في أمور الدنيا وما له أو عليه من حقوق ، أو لا يستطيع أن يوصي الإنسان غيره بالتوبة والإقلاع عن المعاصي ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع من ذلك ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا[٢] .

وبعد الصيحة الأولى التي يموت بها أهل الأرض تأتي النفخة في البوق وبها يبعث اللّه الناس أحياءً للحساب والجزاء :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا : يَا وَيْلَنَا ، مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥١ ـ ٥٤) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَنُفِخَ[٣] فِي الصُّورِ ﴾ وهي النفخة الثانية في البوق التي يبعث اللّه بها الناس أحياءً من قبورهم ، وقيل إن بينها وبين النفخة الأولى في البوق أربعين سنة ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) يخصمون : أصلها يختصمون فسكنت التاء وأدغمت في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين فصارت يخصمون .

(٢) روي عن النبي ﷺ قوله : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه (أي يطيّنه) فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يَطْعمها » ، أخرجه البخاري .

(٣) ونفخ : بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع .

يَنْسِلُونَ ﴾ الأجداث : هي القبور ، والنسلان : الإسراع في المشي ، أي فإذا هم يخرجون من قبورهم سراعاً إلى ربهم للحساب ونيل الثواب أو العقاب ﴿ قَالُوا : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ فالكافرون يتنادون بالهلاك على أنفسهم ويسأل بعضهم بعضاً : من أيقظهم من نومهم[١] ، فيأتي الجواب على لسان الملائكة أو المؤمنين : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ هذا يوم البعث الذي وعد الرحمٰن به عباده ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وصدق رسل اللّه فيما أخبروا عنه ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ أي ما كان بعثهم وإحياؤهم إلّا بصيحة واحدة صاح بها الملك إسرافيل وهي قوله : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، والشعور المتمزقة إن اللّه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء[٢] ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ فإذا هم مجموعون محضرون للحساب بين يدي رب العالمين . وإن هذا الحساب يتصف بالعدل : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ أي ففي يوم القيامة لا تظلم نفس شيئاً سواء أكانت من الأبرار أو الفجار بل كلٌّ يجازى حسب عمله ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ولا تكافأون أيها الناس إلّا حسب أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا .

ثم يبين القرآن ما يلقاه عباد اللّه الصالحون في ذلك اليوم من نعيم :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ . لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ . سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ (٥٥ ـ ٥٨) .

---

(١) لقد شبه القرآن موتهم بالرقاد ، والتعبير بالرقاد هنا أبلغ وأوقع في النفس من التعبير بالموت لأن الإنسان يتكرر عليه النوم واليقظة وليس كذلك الموت ، ولما تكررت عليهم اليقظة بعد الموت شبه اللّه موتهم بالرقاد الذي بعثوا بعده أحياء .

(٢) فصل القضاء : حكم اللّه وقضاؤه .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ ﴾ سمى اللّه المؤمنين بذلك الاسم تمكيناً لهم منها وإطلاقاً لأيديهم بالتصرف في كل شيء في الجنة شأنهم في هذا شأن المالك فيما ملك ، وهم يوم القيامة ﴿ في شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ أي إن المؤمنين مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي وما هم فيه من عذاب ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ فهم وأزواجهم الصالحات يتمتعون بنعيم الجنة في ظلالها الوارفة[1] وهم على السرر المزينة متكئون ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ لهم في الجنة من كل أنواع الفاكهة ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ ولهم فيها كل ما يطلبون أو يتمنون ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ يقال لهم : سلام من جهة رب رحيم ، فاللّه يسلم عليه بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في إكرامهم ، أو لهم سلام وأمان خالص في الجنة لا يشوبه كدر ولا تنغيص .

وبعد أن بيّن اللّه أحوال أهل النعيم في الآخرة بيّن بالمقابل أحوال المجرمين :

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥٩ ـ ٦٥) .

---

(١) ليس في الجنة شمس ولكن التعبير القرآني يرمي إلى الإشارة إلى ما هم عليه من نعيم لا يكدر صفوه حرارة الشمس .

فالكافرون يُنادون يوم القيامة : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي انفصلوا وانعزلوا عن المؤمنين ، ثم يقال لهم عن طريق التقريع والتبكيت ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ والعهد هو الوصية ، أي ألم أوصكم وأبلغكم على ألسنة رسلي ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويحسنه لهم ، وقد عبر القرآن عن الطاعة بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير من الاستجابة لوسوسة الشيطان ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ إن عداوته لكم ظاهرة واضحة وهي بعيدة القِدَم تصل إلى عهد أبويكم آدم وحواء حيث أخرجهما من الجنة ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ وأن اعبدوا اللّه وحده بتوحيده وطاعته ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذه العبادة للّه وحده هي الدين الصحيح والطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ، وتنكير صراط هو للتفخيم ، أي هو طريق بليغ في استقامته ، جامع لكل خير ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أي ولقد أضل الشيطان خلقاً كثيراً منكم يا بني آدم عن طاعة اللّه ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم .

ثم يُقال للكافرين وهم على شفير جهنم ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على كفركم باللّه وتكذيبكم لرسله ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي ادخلوا جهنم وذوقوا حرها اليوم بسبب عدم إيمانكم باللّه وعدم تصديقكم ما جاء على لسان رسله في الدنيا ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وفي ذلك اليوم نطبع على أفواه الكافرين فلا يستطيعون الكلام ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ﴾ بما عملوا في الدنيا من معاصي اللّه ﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وتشهد أرجلهم عليهم بما كانوا يفعلونه في دنياهم ، فإقرار جوارحهم في الآخرة بما عملوا في الدنيا هو تحذير لهم بأن أعضاءهم التي اشتركت في معاصي

اللّه صارت شهوداً عليهم ، وهذا أبلغ في الحجة عليهم من النطق .

ويتابع اللّه سبحانه تهديده للمشركين بسبب تكذيبهم لما جاء به رسوله محمد ﷺ من الهدى :

﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٦ ـ ٦٧) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ﴾ أي لو نشاء لعاقبناهم على كفرهم عقاباً عاجلاً فأذهبنا أعينهم بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن فصاروا بذلك عمياً لا يبصرون طريقاً يسلكون فيه ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ فتسابقوا وتسارعوا إلى الطريق المسلوك لهم ليمضوا فيه ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ فكيف يبصرون الطريق ولا أبصارَ لهم ، وقد يكون المراد بالطمس على الأعين هو حجبهم عن الهدى فكيف بعد ذلك يهتدون إلى الحق .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ[1] ﴾ المسخ : تحويل صورة الشيء إلى صورة أقبح منها أو إلى صورة أخرى ، والمعنى : ولو نشاء تغيير صورهم لغيرناهم إلى قردة وخنازير أو جماد في المكان الذي اجترأوا فيه على المعصية ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ، ولا أن يرجعوا وراءهم ، لأن البهيمة لا تعقل موضعاً تقصده ، وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر .

(١) مكانتهم : المكانة والمكان بمعنى واحد .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ

شرح المفردات

نعمّره : نطيل عمره .

ننكّسْه في الخلق : نصيره إلى حال الضعف والعجز والهرم .

وما ينبغي له : ما يصح له ولا يجدر به .

أنعاماً : المواشي من الإبل والبقر والغنم .

وذلّلناها لهم : جعلناها مسخرة منقادة لهم .

خصيم : شديد الخصومة .

رميم : بالية أشد البلى .

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

شرح المفردات

ملكوت : هو الملك التام .

تابع سورة يس ٧

ثم يبين اللّه بعد ذلك مدى ضعف الإنسان الذي يتبدى بعوارض الشيخوخة التي تصيبه :

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٨) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ أي ومن نمُدّ له في العمر ونجعله مسناً ﴿ نُنَكِّسْهُ في الْخَلْقِ ﴾ يقال نكس الرجل إذا ضعف وعجز . والنكس قلب الشيء على رأسه وجعل أعلاه أسفله ، أي أن قوة الإنسان في شبابه يبدلها اللّه في حال هرمه ويجعلها تسير على عكسها[1] ،

---

(١) حياة الإنسان تأخذ ثلاث مراحل : أولاً ، النمو . ثانياً : النضج . ثالثاً : ضمور النسيج الحشوي في الكلى والكبد والغدة الدرقية والبنكرياس وهذا له أثر في إضعاف الجسم كله . وتبدأ كذلك الشرايين في التصلب والضمور وبذلك يقل الدم الذاهب إلى جميع أعضاء الجسد فيزيده ضعفاً على ضعف . ومن أسباب الشيخوخة زيادة قوى الهدم على قوى البناء في الجسم وذلك أن خلايا الجسم كلها في تغير مستمر وتجدد وكذلك خلايا الدم ، فإذا زادت نسبة هلاك الخلايا على تجددها ظهرت عوارض الشيخوخة ، وكلما تقدم الإنسان في السن تضاءلت نسبة تجدد الخلايا في الجسم . (عن كتاب المنتخب في تفسير القرآن باختصار) .

فتتناقص قوته وتضعف بنيته ويتغير شكله ، ويعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل ، وفي هذا المعنى جاء في القرآن : ﴿ وَمِنْكُم مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَي لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيئاً ﴾ الحج : ٥ . ثم يعقّب القرآن على الآية السابقة ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا يشحذ هؤلاء الكفار عقولهم فيدركوا مدى قدرة اللّه وضعف الإنسان.

ثم ينفي اللّه صفة الشعر عن رسوله محمد ﷺ :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغي لَهُ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ وقُرآنٌ مبين . لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ (٦٩ ـ ٧٠) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ أي وما علمنا رسولنا محمداً الشعر ﴿ وَمَا يَنْبَغي لَهُ ﴾ ولا يصح ولا يليق ـ لمكانته ومنزلته ـ أن يكون شاعراً ﴿ إنْ[1] هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أي ما القرآن المنزل عليه إلّا عظة وتذكير من اللّه لعباده وإرشاد لهم ، وكتاب سماوي واضح يظهر لمن تدبره أنه تنزيل من اللّه ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً ﴾ ليخوف اللّه به من كان حي القلب يعقل ما يقال له ، ويفهم ما يبيّن له ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين المصرين على الكفر ، وفي ذكر الكافرين مقابل الأحياء الذين ينتفعون بالقرآن إشارة بأن الكافرين في بُعدهم عن الاتعاظ والفهم والاعتبار هم في حكم الأموات لأنهم لا يفهمون ولا يدركون ولا يتعظون بما يقال لهم .

فالقرآن نفى تعليم محمد للشعر ، وإذا لم يكن محمد شاعراً لم يكن القرآن شعراً البتة ، وهذا رد لقول بعض العرب المنكرين لنبوة محمد ﷺ

---

(١) إن : حرف نفي بمعنى ما .

القائلين : إن القرآن شعر ، وأن محمداً هو شاعر ، ومقصدهم بذلك إثبات أن القرآن من نظم محمد وليس وحياً من اللّه ، وهي شبهة كانت تتردد عند الكفار من العرب بدون علم ولا تحقيق .

ولكن لماذا قارنوا قديماً القرآن بـالشعر ؟ إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نـظم القرآن هـو ذلك الجمـال الصوتي البـديع ، والـوزن الخاص الذي اختص به من تآلف الحروف في النغم ، وتراصف الكلمات بعضها إلى بعض في سلاسة وعذوبـة بآيـات تنتهي بفاصلة[1] ، تَـطّرِدُ هذه الفاصلة على ألفاظ معينة ، أو تتغير في نسق خاص ، فالفـاصلة هي مفتاح الوزن القرآني وموسيقى نغمه .

ولكن الذي يقارن بين نظم القرآن والشعر يرى أن القرآن ليس بشعر ، فالشعر كما هو معروف يلتزم بالقافية ، وهو محدد بحدود معينة من الأعاريض المعروفة لا تخرج عنها قصيدة عربية ، وقصيدة الشعر تتفق كلها على وزن خاص وروي مشترك من مطلعها إلى ختامها ، ولا يسمى شعراً كل مـا يقال على ألسنة الناس أو العامة ، فالشعر لا يقع إلّا من شاعر عالم به قاصد إلى وزنه وتقفيته بينما القرآن يختلف اختـلافاً بيّنـاً في نظمـه وأعاريضـه وفنونـه وطرقه .

هـذا من ناحيـة الوزن ، أمـا من ناحيـة المعنى فـإن الشعـر يسيـر مـع العواطف والأهواء ، ولا يتبع ما يمليه العقل والمنطق ، ومن ثم كان الشعـر مستقر الأكاذيب بما فيه من المبـاهاة والفخـر بالبـاطل ، ولهـذا قيل أعـذب الشعر أكذبه . ومن المعروف عند كثير من الشعـراء أنهم إذا غضبوا بـالغوا في الذم والهجاء وضربوا بالحقيقة عرض الحائط ، وإذا استرضوا بعد قليل

(١) الفاصلة : هي آخر كلمة في الآية .

رفعـوا الشخص الـذي هجـوه إلى أعلى المنـازل ، وأدخلوه في زمـرة العـظماء ، وكـان من طبيعـة الشعـراء قـديمـاً إذكـاء الحميـة في قـومهم ، والمنـافسة في تعـداد فضائلهم . وإذا كـان الشعر على مـا وصفنا خـاضعـاً لانفعالات الإنسان وأهوائه مما يجعله متقلباً من حال إلى حال ، فبالمقابـل فإن الوحي المنزل على قلب النبي ﷺ لا يتقلب مع الأهـواء بل يسيـر على منهج الحق وعلى طريق مستقيم ، هـذا من ناحيـة ومن ناحيـة أخرى نـرى القـرآن لم يشـارك مـا ألفـه العـرب في أشعـارهم لا في مـطالعهـا ولا في مـوضوعـاتهـا ، فهـو لا يصف الأطـلال والـربـوع ، ولا يصف الحنين إلى الأحبـة ، ولا يصف الإبل في أسفـارها الـطوال ، وليس فيه غـزل ولا فخـر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء ، بل القرآن يصف جلال ربوبية اللّه ، ويذكر أسماء اللّه الحسنى وأحـوال اليوم الآخـر من نعيم للمتقين وعذاب للفجـار ، كما يقص علينـا القرآن أخبـار الرسـل مع أقـوامهم ، ويقدم التشـريعات المثلى العادلة التي تنقض عادات العرب ، ويعرض لمكارم الأخلاق .

فلو كـان محمد ﷺ شـاعراً لـذهب مذاهب العـرب في نظم الشعـر ، ولطرق المواضيع التي توحي بها طبيعة أرضهم ، ومنهج حياتهم ، ولتكلف في نظم القول ولجاراهم في ذلك وفي ما هم عليه من المنـافسة والإغـراق في الـوصف ، والجنوح في الخيـال والأوهام ، وتحسين مـا ليس بحسن ، وتقبيح ما ليس بقبيح .

وقد كان النبي ﷺ إذا تمثـل ببيت من الشعر يكسـره فلا يقيم وزنـه مع أنه كان أفصح العرب فلم يكن ينشد بيتاً تـاماً على وزنـه . أنشد مـرة صدر بيت الشعر المشهور للبيد وهو قوله :

« ألا كـل شيء مـا خـلا اللّه بـاطـل » فسكت عن عجـزه « وكـل نعيم

لا محالة زائل » .

وأنشد البيت ـ السائر على الألسنة ـ لطرفة على هذه الصورة :

« ستبدي لك الأيـام ما كنت جـاهلاً » وأكمـل الشطر الثـاني على هذه الصورة :

« ويأتيك من لم تـزوده بالأخبـار » وأصله : « ويأتيـك بالأخبـار من لم تزودِ » .

ولم يجرِ على لسان النبي مما صح وزنه إلّا ضربان من الرجز المنهوك والمشطور كقوله يوم غزوة أحد :

أنـا الـنـبـي لا كَـذِبْ   أنـا ابـن عبـد الـمـطلبْ

والثاني قوله عندما دميت إصبعه :

هـل أنت إلا إصبـع دميتِ   وفي سبيـل اللّه مـا لقيتِ

وإنمـا اتفق له ذلـك لأن الرجـز في أصله ليس بشعـر إنمـا هـو وزن كأوزان السجع ، وإنما جعل الرجز من الشعـر بسبب تتابـع أبياتـه ، وجمع النفس عليـه واستعمالـه في المفاخـرات وهو كـلام من جنس كلام العـرب الـذي يتكلم به على طبيعتـه من غير صنعـة ولا قصد إلى وزن ممـا لا يعد شعراً .

ولكن لا بد أن نشير إلى أن النبي ﷺ كان له شعـراء فحول يمـدحونـه ويدافعون عنه فكان يكرمهم ويسبغ عليهم هداياه وكان يفعل ذلك رداً لكيد أعدائه من الشعراء الذين يتطاولون عليه .

وبجانب ذلك يعتبر الشعر عنصراً هاماً في فهم القرآن يقـول ابن عباس

رضي اللّه عنـه : إذا سألتمـوني عن شيء من غريب القـرآن فـالتمسـوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب .

وبعد أن نفى اللّه صفة الشعر عن رسوله محمد ﷺ أتبع ذلـك بـالكلام عن الأنعام وما فيها من أسرار تشهد بربوبيته سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٧١ ـ ٧٣) .

فـاللّه سبحانـه يقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَـرَوْا أَنَّا خَلَقْنَـا لَهُم ﴾ والرؤيـة علمية لا بصـرية لأن المشـركين لم يشاهـدوا خلق الأنعـام ، والمعنى : ألم يعلم ويتفكر هؤلاء المشركون أننا خلقنا لأجلهم وانتفاعهم ﴿ مِمَّـا عَمِلَتْ أَيْدِينَـا أَنْعَاماً ﴾ أي مما تولينـا صنعه بـلا معين ولا شريـك ، وعبّر اللّه عن صنعهـا بـاليد ليقرّب المعنى إلى أفهامهم ، واللّه سبحـانه منزه عن اليد وعن كـل ما اقتضى التشبيه . والأنعام : هي الإبل والبقر والغنم ، ولقد خصها القرآن بالذكر لما لها من الفوائد الجمة وبـالأخص عند العـرب الذين نـزل القرآن فيهم وقد كانت دعامة حياتهم ﴿ فَهُمْ لَهَا مَـالِكُونَ ﴾ أي فهم قـادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ أي سخرناها لهم حتى أن الصبي الصغيـر ليقـود الجمـل الضخم ويضربـه ويصرفـه كيف شـاء لا يخـرج عن طاعتـه ، ثم تفصل الآيـة أوجه المنـافع : ﴿ فَمِنْهَـا رَكُـوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي من هذه الأنعام ما يركبـونه في الأسفـار كالإبـل ، ومنها مـا يأكلون لحمـه كـالبقـر والغنم والإبـل ﴿ وَلَهُمْ فِيهَـا مَنَـافِـعُ وَمَشَـارِبُ ﴾ والمنافع معروفة كـالانتفاع بجلودهـا وأصوافهـا وأوبارهـا ، وحراثـة الأرض

بواسطة الثيران ، أما المشارب فهي ألبانها ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي أفلا يشكرون نعمتي هذه عليهم ويقابلون إحساني إليهم بطاعتي وإفرادي وحدي بالألوهية والعبادة .

المتأمل في خلق الأنعام[1] وتذليلها لمنفعة الناس بالذات يجد فيها آية كبرى على وجود اللّه وتصرفه الحكيم في هذا الكون ، ويرى بطلان ما ذهب إليه الماديون الملحدون من قيام هذا الكون على المادة وحدها .

إن الماديين يقولون إن الماء والتراب والنار قد اختلطت ونضجت في فرن الأشعة الشمسية والكونية فتطورت إلى الملايين من البشر والحيوانات والطيور والأسماك والحشرات والأشجار ، بهذا المنطق الغريب يدّعون قيام المخلوقات نافين وجود الخالق ، إنهم لا يجدون إلّا مادة تتطور من مادة صماء إلى مادة عاقلة . ولكن لماذا لا نقوم نحن أنفسنا بعملية من هذا النوع فنضع تراباً في المختبرات ونسلط عليه الأشعة اللازمة وننتظر أن يخرج منه ببغاء أو قرد أو إنسان أو زهور ، ولماذا لا تتطور هذه الكائنات مرة أخرى وعلى مرأى منا جميعاً ، أسئلة كثيرة نضعها أمام الماديين لعلهم يزيلون من أذهانهم هذه الأباطيل والشبهات على وجود الخالق .

وبعد الكلام عن الأنعام وتذليلها لمنفعة الناس والتي تشهد بوجود خالق حكيم لها ، يعيب اللّه على المشركين اتخاذهم الأصنام آلهة من دون

---

(١) من أكبر فوائد الأنعام أنها تعطينا اللبن الذي نشربه ، واللبن غذاء كامل . وتوجد في ضروع الماشية غدد خاصة لإفراز اللبن ، هذه الغدد تمدها الأوعية الشريانية بخليط مكون من الدم والغليكوز ، والغليكوز هذا عبارة عن الغذاء المهضوم من الفرث (أي ما في الكرش) . وبديهي أن كلاًّ من الدم والغليكوز غير مستساغ طعماً ، ولكن تقوم الغدد اللبنية باستخلاص عناصر اللبن من هذين السائلين ، كما تضيف إليها عصارات تحولها إلى اللبن الخالص السائغ للشاربين .

اللّه ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ . فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٤ - ٧٦) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ أي واتخذ المشركون من غير اللّه أصناماً جعلوها آلهة يعبدونها ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ طمعاً أن تنصرهم تلك الآلهة من عقاب اللّه وعذابه ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ لا تستطيع هذه الآلهة نصرهم من اللّه إن أراد بهم سوءاً ولا تدفع عنهم ضراً ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ وهؤلاء المشركون لآلهتهم العاجزة بمنزلة الجند يحرسونها ويغضبون لمن يمسها بسوء ، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم سوءاً فكيف يستطيع المحروس العاجز أن ينصرهم ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فلا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين أنك شاعر أو ساحر أو مجنون ، ولا يحزنك تكذيبهم بآيات اللّه وجحودهم نبوتك ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ إن اللّه يعلم ما يخفون من أقوالهم عنك وما يعلنون منها ، وسيجازيهم على أفعالهم .

ويتابع اللّه سبحانه مناقشة المنكرين للبعث بالأدلة العقلية :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٧ - ٧٩) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ ﴾ والرؤية هنا لا يقصد منها مجرد البصر بل النظر المقترن بالاعتبار والتدبّر ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾

والنطفة هي ماء الرجل وماء المرأة أي منيّهما فماء الرجل يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية وأحد هذه الحيوانات يلقح بييضة الأنثى وعند تلقيحها تبدأ أول مراحل تكوين الجنين ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ فإذا هو بعد أن يكبر وتشتد قواه يصبح شديد الخصومة والجدال بالباطل ، فالقدرة الإلّهية التي خلقت الإنسان بهذه الصورة المدهشة لا يصعب عليها إعادة الإنسان حياً يوم القيامة ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ وساق لنا هذا المُنْكِرُ للبعث مثلاً ينكر به قدرة اللّه على البعث ، ونسي أن اللّه خلقه من نطفةٍ ﴿ قَالَ : مَنْ يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[1] ﴾ أي لقد قال هذا المنكر للبعث وهو يحمل العظم البالي : من يحيي هذه العظام البالية المتفتتة ويعيدها إلى حالتها السابقة ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قل يا محمد لهذا المنكر للبعث إن اللّه يحيي العظام الذي أوجدها من العدم أول مرة ، ولا ريب أن الإعادة أهون من الإنشاء في عرف الناس ، فكل من أنشأ شيئاً أولاً قادر على إنشائه وإحيائه[2] ، إنه دليل منطقي رائع لا يمكن للعقل إلّا أن يسلم به ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ وهو سبحانه عليم بجميع خلقه .

ثم يقدم القرآن مثالاً آخر على قدرة اللّه :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (٨٠) .

(١) يروى في أسباب نزول الآية : أن العاص بن وائل السهمي جاء إلى رسول اللّه حاملاً عظماً حائلاً (بالياً) بين يديه فقال : يا محمد أيبعث اللّه هذا حياً بعدما أرمّ (أي بلى) ؟ قال : نعم يبعث اللّه هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم .

(٢) وقد جاء في القرآن في وصف القدرة الإلّهية ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ الروم : ٢٧ .

ثم كيف تتكون الأشجار وتتحول إلى نار ؟ إن طاقة الشمس تنتقل إلى جسم النبات بعملية التمثيل الضوئي إذ تمتص خلايا الأوراق المحتوية على مادة اليخضور « الكلوروفيل » ثاني أوكسيد الكربون من الهواء فتجزئه وتأخذ منه الكربون فتكون بواسطته المواد الهيدروكاربونية التي تؤلف النشويات وباقي المواد العضوية . فخشب الأشجار يتكون معظمه من الكربون والأوكسجين والهيدروجين ومواد عضوية مصدرها التربة ، ومن عنصر الكربون نحصل على النار . فلفظ الاخضرار في الآية ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً ﴾ هو إشارة إلى مادة « الكلوروفيل » هذه التي تقوم بعملية التمثيل الضوئي والتي هي من العناصر المهمة لتكوين النبات بأجزائه وثماره ، وهي من الأسرار التي كشف عنها القرآن قبل أربعة عشر قرناً .

فهل هذا أيها الماديون من صنع المادة العمياء ، لا ، لا يقول بهذا عاقل أبداً ، بل ذلك من صنع وتدبير القدرة الإلّهية الحكيمة المبدعة .

ثم يختم اللّه هذه السورة بهذا البرهان المفحم على قدرته على إعادة الأجسام حيّة بعد موتها للحساب والجزاء :

﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨١ ـ ٨٣) .

فاللّه يقرر بأن من خلق السموات المحتوية على بلايين الأجرام السماوية ، وأن من خلق الأرض وما فيها من جبال ووديان وسهول وبحار وأنهار وأشجار ونبات وما يعيش فيها من ملايين الملايين من الكائنات

الحية ، نعم إن من خلق ذلك كله قادر على إعادة الإنسان حيّاً ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ والخلاق والعليم صفتان للّه مبالغة من الخلق والعلم ، فاللّه هو الكثير الخلق، المحيط علمه بكل شيء لا يخفى عليه خافية ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ أي إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بإحداث شيء وتكوينه ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أن يقول له : أحدث فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً ولا على أي سبب ما ، وليس هناك تعبير يوازي هذا التعبير إحاطة في وصف عظمة القدرة الإلّهية التي هي فوق التصور والإدراك .

﴿ فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فتنزيهاً وتقديساً للّه الذي بقدرته ملك كل شيء ، وملكوت في اللغة صفة مبالغة في الملك . هذه الصفة للّه تشعرنا بعظمته المتجلية بملكيته لكل شيء في هذا الوجود وسيطرته القاهرة على كل ما فيه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي إنكم أيها الناس في خاتمة المطاف وعند انتهاء أعماركم تعودون إلى اللّه وحده .

وهكذا تنتهي السورة بتذكير الإنسان بأن مآله إلى اللّه فليحاسِبْ نفسه قبل أن يُحاسَبَ ، وليكبح جماح أهوائه ، ويقلع عن فجوره ، قبل أن يقف بين يدي اللّه الديَّان يوم الحساب والجزاء فيحاسبه على ما قدمت يداه .

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها القسم بالصافات ، والمراد بها الملائكة التي تقف صفوفاً في العبادة ، أو تصف أجنحتها في الهواء امتثالاً وانتظاراً لتلقّي أمر اللّه .

هذه السورة تستهدف غرس عقيدة توحيد اللّه في النفوس وتخليصها من شوائب الشرك باللّه التي كانت سائدة في البيئة العربية قبل الإسلام .

وتتحدث السورة عن الشياطين المردة وتعرضهم للرجم بالشهب عند الصعود إلى السماء كي لا يقربوا من الملائكة ويسمعوا ما يدور بينهم من أحاديث .

وتقرر السورة إمكانية حصول البعث الذي كان المشركون يستبعدونه ويستهزئون به مبينة ما يلاقيه المكذبون به من عذاب اللّه يوم القيامة جزاء عصيانهم لربهم ، وما يلاقيه المؤمنون من نعيم اللّه في الجنة جزاء طاعتهم لربهم .

وتعرض السورة بعض قصص رسل اللّه في لمحات سريعة واصفة طرفاً من كفاحهم وصبرهم وتضحياتهم في سبيل رضاء ربهم .

وأخيراً تفنّد السورة أُسطورة القرابة بين اللّه والجن وأن الملائكة بنات اللّه وترد على هذه المزاعم الباطلة مبينة أن اللّه يتنزه عن كل ما يصفه به المشركون من صفات النقص ، وأنه الواحد الأحد صاحب العزة لا ينازعه فيها أحد ، وأن له الحمد وحده على ربوبيته لهذا الكون .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا (١) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا (٢) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا (٣)
إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ (٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ
ٱلۡمَشَٰرِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ (٦) وَحِفۡظٗا
مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن
كُلِّ جَانِبٖ (٨) دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنۡ خَطِفَ

شرح المفردات

والصَّافَاتِ صَفّاً : الواو للقسم ، أقسم الله بالملائكة التي تقوم صفوفاً في العبادة

فالزَّاجِرَات زَجْراً : أقسم الله بالملائكة الذين يزجرون الناس عن المعاصي .

فالتَّالِيَات ذِكْراً : أقسم الله بالملائكة الذين يتلون كتب الله على أنبيائه .

شَيْطَانٍ مَارِدٍ : عتا وازداد في الشر وتعرى من الخيرات .

لا يَسَّمَّعُون : أصلها لا يتسمعون (أدغمت التاء في السين)

الملأ الأعلى : أشراف الملائكة .

يُقْذَفُونَ : يرجمون .

دُحُوراً : مطرودين ، مبعدين .

عَذَابٌ وَاصِبٌ : عذاب دائم لا ينقطع .

خَطِفَ الخَطْفَة : اختلس الكلمة مسارقة بسرعة .

ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ (١٠) فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا
أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ (١١) بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ (١٢) وَإِذَا
ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓاْ
إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبۡعُوثُونَ (١٦) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ (١٧) قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ (١٨)

شرح المفردات

شِهَابٌ : شعلة ساطعة من النار .

ثَاقِبٌ : مضيء .

فاسْتَفْتِهِمْ : فاستخبرهم وسلهم .

طِينٍ لازِبٍ : شديد متماسك الأجزاء .

وإذا ذُكِّروا لا يذكرون : وإذا وُعظوا لا يتعظون .

يستسخرون : يسألون غيرهم أن يسخروا .

دَاخِرُونَ : منقادون أذلاء .

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

إيضاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة بالتأكيد على وحدانيته بالقسم بجماعات وطوائف متعددة ، واللّه يقسم بما شاء تنويهاً بشأن المقسَم به :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً . إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (١ ـ ٥) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ والصَّافَّاتِ صَفّاً ﴾[١] الواو للقسم . الصافات : قيل هم الملائكة المصطفون في السماء صفوفاً يعبدونه ويسبحون بحمده ، وقيل المراد بالصافات : جماعات المؤمنين المصطفين في الصلاة جماعة .

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ﴾ الزجر : المنع والنهي ، قيل هم الملائكة الذين يزجرون بني آدم عن المعاصي بإلهامهم الخير ، وقيل المراد بالزاجرات : آيات القرآن لتضمنها أوامر تنهى عن الأفعال المنكرة ، وقد يراد بالزاجرات كل من زجر عن معاصي اللّه من المؤمنين الداعين إلى الخير .

﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾[٢] قيل هم الملائكة الذين يقرأون كتاب اللّه تعالى ، وقيل : هم قرّاء القرآن . وقيل : هم الأنبياء يتلون كتب اللّه على أممهم .

---

(١) الصف : أن يجعل الشيء على خط مستقيم وجمعه صفوف ، يقال صف القوم يصفون صفاً واصطفوا صاروا صفاً .

(٢) الذِّكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ، وكل كتاب من كتب الأنبياء ذِكرٌ .

لقد أقسم اللّه في مستهل هذه السورة بهذه الأمور التي ذكرناها ، ووقوع القسم في ابتداء السورة له أثره النفسي حيث يجذب انتباه السامع لما يحدثه القسم في نفسه من الرهبة ، ولما يصاحب ذلك من تهيؤ نفسي لتلقي ما يقال[١] . ولكن ما هو المقسم عليه ، أو بعبارة أخرى ما هو جواب القسم ؟ إنه الآية التالية : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ أي إن إلٰهكم المعبود بحق هو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، واحد لا شريك له ، ليس له شبيهٌ ولا مثيل .

ثم عقّب القرآن على الوحدانية بوصف عظمة القدرة الإلٰهية ﴿ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ والرب هو المالك والسيد والمربي ، فهو سبحانه مالك السموات والأرض وما بينهما من موجودات ، كما أنه سبحانه مالك المشارق ، وهي مشارق الشمس إذ أنها في كل يوم تشرق من مشرق ، وتغرب من مغرب يختلف قليلاً عن المكان الذي أشرقت منه ، وذلك بما سنّه اللّه في النظام الشمسي من قوانين حيث تدور الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق كل يوم وليلة مرة ، وتدور في فلكها الإهْليلَجي حول الشمس مرة كل سنة أي في مدة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم .

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى سماء الدنيا التي يراها الناس وقد زينها اللّه بالكواكب التي تشهد بربوبيته ووحدانيته :

---

(١) ورد مثلُ هذا القسم في القرآن كثيراً ، لأنه جاء بلغة العرب وأساليبهم وكان من عادتهم إذا سمعوا الرجل يقسم يعلمون أنه سيقول كلاماً هاماً يجب الإصغاء إليه ، وسبب ذلك أنهم كانوا يخافون من القسم الكاذب ويعتقدون أنه يخرب الديار . فلهذا كانوا يستقبلون الكلام المبتدأ بالقسم باهتمام خاص . هذا وقد تكلمنا عن أسرار القسم في القرآن عند تفسيرنا لسورة النازعات .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ . وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (٦ - ١٠) .

فالسماء الدنيا هي أقرب سماء لأهل الأرض ، وهذه السماء زينها اللّه بنور الكواكب[١] . فالنظر إلى السماء ، وتأمل ما فيها من أجرام مضيئة في الليالي الصافية التي يغيب فيها القمر عن الأنظار لمشهدٌ يبعث على الإيمان والإجلال لعظمة الخالق ، ويظهر ضآلة النفس أمام هذا الكون الفسيح الذي لا يُعدّ الإنسان أمامه شيئاً يُذكر .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ أي وحفظ اللّه السماء من كل شيطان مارد ، والمارد : هو المقبل على الشر المتمرد عن طاعة الله ، المتعري من الخيرات ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ[٢] إِلَى المَلأ[٣] الأَعْلَى ﴾

---

(١) الكواكب : جمع كوكب وهو في عرف القرآن ـ والله أعلم ـ كل جرم مضيء سواء أكان كوكباً من جنس الأرض ، أو كان نجماً مشتعلاً كالشمس ، لأن النجوم شموس كشمسنا ، بينما الكواكب في عرف علماء الفلك تطلق على الأجرام المعروفة الشبيهة بالأرض وهي التي تضاء بانعكاس نور الشمس عليها كالمشتري والمريخ ، وزحل ، وعطارد ، والزهرة . وبعد صنع المراقب القوية أمكن اكتشاف الواكب الآتية : أورانوس ، ونبتون ، وبلوتو .
والقرآن لفت الأنظار في آيات أخرى إلى هذه الزينة الظاهرة في السماء بقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وليس من المعقول أن يكون المراد بزينة الكواكب هي الكواكب الخمسة التي تتراءى بالمنظر المجرد والتي كانت مرئية في عهد نزول القرآن ويغفل عن ألوف النجوم التي ترى بالعين المجردة . هذا وقد أشار القرآن إلى النجوم بقوله : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ ﴿ هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ ﴿ والنجم الثاقب ﴾ .

(٢) يسَّمّعون : أصلها يتسمعون فأدغمت التاء في السين ، والتسمع طلب السماع .

(٣) الملأ : يطلق في اللغة على الأشراف والجماعة .

والمراد بالملأ الأعلى هنا الملائكة لأنهم يسكنون السموات ، والإنس والجن هم الملأ الأدنى لأنهم سُكان الأرض ، فاللّه سبحانه حفظ السماء من تنصت الشياطين لسماع كلام الملائكة، فقد كانت الشياطين يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع إلى كلام الملائكة ، وما أُخبروا به من أمور الغيب ، وما قضى اللّه به ، فتوحي الشياطين بهذه الأخبار إلى الكهّان ، فمنعهم اللّه من الصعود إلى السماء بعد بعثة محمد ﷺ ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي يُرمون ويُرجمون بالشهب من كل ناحية من نواحي السماء وجهاتها إذا أرادوا استراق السمع ﴿ دُحُوراً ﴾ أي مطرودين مبعدين من السماء ﴿ وَلَهُم عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ ولهم عذاب موجع أو دائم ﴿ إلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ ﴾ إلاّ من استرق السمع من الشياطين واختلس من الملائكة بعض الكلام مسارقة ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ فلحقه شهاب مضيء يحرقه حين يُرمى به .

وبعد لفت الأنظار إلى السماء وما فيها من أجرام تزيّن السماء انتقل القرآن إلى الرد على المنكرين للبعث :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِنْ طِينٍ لازِب . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرونَ . وَقَالوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤنَا الأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُم دَاخِرُونَ ﴾ (١١ - ١٨) .

فاللّه يخاطب رسوله محمداً : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أي سل هؤلاء المشركين الذين ينكرون البعث واستخبر منهم : هل هم أقوى خلقة وأشد إيجاداً ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ أم ما خلق اللّه من السموات والأرض

وما فيهما من كائنات وخلائق ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ ﴾ أي إن اللّه خلقهم من طين لاصق بعضه ببعض ، والمراد به التراب المخلوط بالماء ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ بل عجبت يا محمد من قدرة اللّه على إيجاد هذه الخلائق العظيمة ويسخرون منك بسبب تعجبك ﴿ وإذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ﴾ وإذا وُعظوا بموعظة من مواعظ اللّه لا يتعظون ولا ينتفعون بها ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾[1] وإذا رأوا حجة ودلالة على نبوتك يا محمد يبالغون في السخرية ، أو يسألون غيرهم من المشركين أن يسخروا من النبي ﴿ وَقَالوا : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي وقال المشركون ما هذا الذي تأتينا به يا محمد إلّا سحر واضح ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمبْعُوثُونَ ﴾ الاستفهام منهم على سبيل الإنكار والاستهزاء ، أي أَنُبعث أحياء بعد الموت وقد تحلّلت أجسامنا إلى تراب وعظام ﴿ أَوَ آباؤُنَا الأَوَّلُون ﴾ وهل آباؤنا الأولون أيضاً مبعوثون ، وهذا زيادة منهم في استبعاد حصول البعث لأن آباءهم أقدم منهم ، وأجسامهم قد زاد فيها البلى والتحلل ﴿ قُلْ نَعم وَأَنتُم دَاخِرون ﴾ أي قل لهم يا محمد نعم ستبعثون أحياءً يوم القيامة وَأَنتُم صاغرون أذلاء .

---

(١) السين في يستسخرون للسؤال والطلب .

(٢) إنْ : حرف نفي بمعنى ما .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ
الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ
ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ
﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ
﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا
قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ

شَرح المفردات

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ : وما أمر البعث إلّا صيحة واحدة .

يا ويلنا : كلام يقوله المتحسرون ومعناه : يا هلاكنا .

يَوْمُ الدِّين : يوم الجزاء .

يَوْمُ الفَصْلِ : يوم القيامة ، حيث يفصل فيه بين أهل الحق والباطل .

وَأَزْوَاجَهُمْ : وأشكالهم .

فَاهْدُوهم إلى صِرَاطِ الجَحِيمِ : سوقوهم ودلوهم إلى طريق جهنم .

وَقِفُوهُمْ : احبسوهم في موقف الحساب .

مسؤولُونَ : محاسبون .

تأتونَنَا عَنِ اليَمِينِ : تخدعوننا وتفتنوننا عن طاعة اللّه .

سُلْطَانٍ : حجة وبرهان .

فَأَغْوَيْنَاكُمْ : دعوناكم إلى الضلال .

كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا
لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾
إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ
وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا
غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

شرح المفردات

بِكَأْسٍ مِنْ معين : بكأس خمر من نهر ظاهر للعيون .

غَوْلٌ : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به .

ولا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون : لا تذهب الخمر عقولهم بالسكر .

قَاصِرَاتُ الطَّرْف : نساء قصرن أبصارهن على الأزواج ولم يطمعن في غيرهم .

عِين : حسان العيون .

كَأَنَّهن بَيْضٌ مَكْنُونٌ : العرب تشبه النساء الجميلات ببيض النعام المصون من الغبار .

تابع سُورة الصَّافات

وبعـد هـذا الـرفض من المشركين لعقيـدة البعث وإمعـانهم في الاستهـزاء به يثبت القـرآن وقوعـه ويعطي صـورة مـوجـزة عنـه وعن مصير المكذبين به :

﴿ فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرونَ . وَقَـالوا يَـا وَيْلَنَا هَـذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الـذي كُنتُم بِهِ تُكَـذِّبُونَ . احْشُـرُوا الذينَ ظَلَمُـوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَـا كَـانُـوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَـاهْـدُوهُم إِلَى صِـرَاطِ الجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُـونَ . مَا لَكم لا تَنَـاصَرُونَ . بَـلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (١٩ ـ ٢٦) .

فـاللَّه سبحانـه يقول : ﴿ فَـإِنَّما هِيَ زَجْـرَةٌ[1] وَاحِدَةٌ ﴾ أي إنمـا قصـة البعث تكون بصيحة واحدة تحصل عندما ينفخ الملك إسرافيـل في البوق ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرونَ ﴾ فإذا هم يقومون من قبورهم أحياء شاخصـة أبصارهم ينـظرون إلى ما كـانوا يـوعدون بـه من البعث ، وقـد تـأتي ينـظرون بمعنى الانتظار ، أي ينتظرون ما يفعل اللَّه بهم ﴿ وَقَـالوا : يَـا وَيْلَنَا ﴾ نـادوا على أنفسهم بـالويـل ، والويـل : كلمة عـذاب ودعاء بـالشر تقـال لمن يستحق الهلكة لسوء فعله ، لقد نادوا على أنفسهم بالويل لأنهم استفـاقوا على أمـر قد كذّبـوا به وقـالوا : ﴿ هَـذَا يَوْمُ الـدِّين ﴾ هذا يـوم الجزاء على الأعمـال ﴿ هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الذي كُنتم بِهِ تُكَذِّبون ﴾ ويوم الفصل هو يوم القيامـة ، وسمي كذلك لأن اللَّه يفصل فيه ويحكم بين المحسن والمسيء بـالعدل ، إن هذا اليوم هو الذي كذّب به المشركون .

---

(١) سمّى القرآنُ الصيحةَ زجرةً من قولنا زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فخافت منه .

ثم يخاطب اللّه ملائكته : ﴿ احْشُروا الذين ظَلَمُوا ﴾ أي اجمعوا الذين ظلموا وهم الكافرون ﴿ وَأَزْوَاجَهُم ﴾ وأشباههم ومن هم على شاكلتهم في الكفر ، وقيل أزواجهم بمعنى نساءهم اللاتي على دينهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ﴾ أي واحشروا معهم ما كانوا يعبدون معهم من دون اللّه من أصنام وطغاة وشياطين ﴿ فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الجَحِيم ﴾ فوجهوهم وسوقوهم إلى طريق جهنم، والهداية هي الإرشاد والدلالة إلى الحق والخير فأطلقت الهداية هنا للدلالة على العقاب والعذاب تهكماً بهم . وقبل أن تسوقهم الملائكة إلى جهنم يأتي الأمر الإلّهي لهم : ﴿ وَقِفُوهُم ﴾ أي امنعوهم عن مواصلة السير واحبسوهم في هذا الموقف ﴿ إِنّهُم مَسْئُولُونَ ﴾ إنهم محاسبون ، أو إنهم سيسألون السؤال التالي المذكور في الآية التالية ﴿ مَالَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ وسؤالهم هو سؤال توبيخ لإيجاب الحجة عليهم لأن اللّه عالم بأعمالهم ، أي لماذا لا تنصركم آلهتكم ولماذا لا ينصر بعضكم بعضاً ؟ وهم أحوج الناس إلى النصرة في هذا الموقف العصيب ﴿ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمونَ ﴾ بل هم اليوم منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد طريق النجاة أمامهم .

ثم يحكي القرآن لنا ما يكون يوم القيامة من حوار بين الرؤساء والأتباع الذين اختاروا الضلالة على الهدى وهم على مشارف العذاب :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُم كُنتُم تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَإِنَّهُم يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نفعل بالمجرمين ﴾ (٢٧ ـ ٣٤) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي صار الأتباع والرؤساء يلوم بعضهم بعضاً ويتخاصمون ﴿ قَالُوا : إِنَّكُم كُنْتُم تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمين ﴾ هذا قول الأتباع للرؤساء الذين أضلوهم ، وليس المراد باليمين : اليد اليمنى بل استعيرت لجهة الحق والخير لأن أفضل الأعمال يباشرها الإنسان بيده اليمنى ، والعرب كانوا يتفاءلون ويترقبون اليُمن من جهة اليمين ، فالأتباع يقولون لرؤسائهم : إنكم كنتم تأتوننا من الناحية التي فيها الحق والخير وهي الدين تهونون أمره علينا وتصرفوننا عنه وتزينون لنا الضلالة . وتأتي اليمين بمعنى القدرة والقوة لأن اليد اليمنى موصوفة بالقهر وبها يقع البطش ، أي إنكم كنتم تأتوننا بالقوة والقهر لتحملونا على سلوك طريق الضلال ﴿ قَالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال الرؤساء : بل لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي وما كان لنا من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿ بَلْ كُنْتُم قَوْماً طَاغِينَ ﴾ بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق فلهذا استجبتم لنا ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ فوجب علينا عذاب ربنا إنا لذائقون العذاب نحن وأنتم بسبب ذنوبنا ومعصيتنا للّه ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ فأضللناكم عن سبيل اللّه ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ إنّا كنا ضالين فلا عتب علينا لإغوائكم ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا في الدنيا مشتركين في الضلالة ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجْرِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك الفعل والعقاب الأليم يفعل اللّه بالمجرمين الذين أجرموا في حق اللّه باتخاذهم شريكاً له وفعلهم المعاصي .

ثم يبيّن القرآن طرفاً من ضلالهم الذي أوردهم عذاب اللّه :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَه إِلاَّ اللّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا

لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُم لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٥ - ٣٩) .

فهؤلاء المشركون استحقوا عذاب اللّه لأنهم كانوا مكذبين بوحدانية اللّه وبنبوّة محمد ﷺ ، أما التكذيب بوحدانية اللّه فتصوره الآية : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُم لا إِلَه إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُون ﴾ إنهم ينكرون وحدانية اللّه ويتعصبون لإثبات شريك للّه كبرياءً وترفعاً عن قبول الحق ، وأما تكذيبهم بنبوة محمد فيتمثل في قولهم : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ لقد أنكروا أن القرآن من عند اللّه بل هو من كلام محمد ﷺ ، ولكن رأوا في القرآن ما أدهشهم من ناحية بلاغته ونظمه وجماله الصوتي مما حملهم بادىء ذي بدء على الظن بأنه شعر وبالأحرى أن النبي هو شاعر ، ولكن ظنهم هذا ما لبث أن تبدد إذ رأوا أن لا شبه بين القرآن وبين الشعر من ناحية نظمه ومن ناحية المواضيع التي يطرقها . ثم ما لبثوا أن وصموا النبي بالجنون ، ولكن أي جنون هذا يمكن أن يوصم به النبي ﷺ وهو الناطق بالحكمة المتخلق بالأخلاق السامية ، المترفع عن الدنايا والمنكرات ، المشهور بينهم بالصدق والأمانة والرزانة ثم هل لمجنون أن يأتي بمثل هذا القرآن المتضمن لشرائع الأمم ودساتير الأخلاق وأصول الحكمة ، ودعوة الأنبياء .

وبعد ادعاءات المشركين الواهية يأتي الرد الإلٓهي ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ فما جاء به محمد من القرآن هو من عند اللّه ، فهو الحق لا ريب فيه ، فهو ليس بشاعر وليس به جنون ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وَصَدَّقَ رسل اللّه فيما جاءوا به من وحدانية اللّه وإثبات الدار الآخرة والدعوة إلى العمل الصالح وترك المنكرات . ثم يأتي التهديد الرباني في خطاب مواجهة لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ أي إنكم أيها المشركون لذائقو

العذاب الأليم يوم القيامة بسبب إشراككم بعبادة اللّه آلهة أخرى وتكذيبكم لنبوة محمد ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن استحقاقكم العذاب هو بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من معاصي اللّه وإنكاركم لدينه .

وبعد أن بيّن القرآن المصير السيىء للمشركين أردف بذكر مصير المؤمنين وما ينتظرهم من نعيم في الآخرة :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمخلَصِينَ . أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ . فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٤٠ - ٤٩) .

فاللّه سبحانه استثنى عباده المخلصين من عذاب الآخرة بقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمخلَصِينَ ﴾ والمخلصين بفتح اللام بمعنى : أخلصهم اللّه واختارهم لطاعته ، وفي قراءة وردت المخلصين بكسر اللام بمعنى : أخلصوا دينهم للّه فلم تشبه شائبة من شرك أو رياء . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ أي لهؤلاء المخلَصين رزق في الجنة معروف في حسنه وطيبه وعدم انقطاعه ﴿ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُون ﴾ والفاكهة هي الثمار كلها وتخصيصها بالذكر لأنها أطيب ما يأكلونه وألذ ما تشتهيه أنفسهم ، وهم مكرّمون بكرامة اللّه التي أكرمهم بها ، فليس في الجنة تنغيص بالأمراض والهموم والتعب وهم ﴿ عَلَى سُرُرٍ[1] مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي جالسون على سرر يقابل فيها بعضهم بعضاً مواجهة لا ينظرون إلى أقفية بعضهم البعض وذلك زيادة في الأنس والسرور ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ يطوف عليهم

---

(١) سُرُر : جمع سرير وهو الذي يجلس عليه أو يضطجع عليه .

الخدم بكأس من خمر من أنهار جارية ظاهرة للعيون[١] ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي هذه الخمر هي بيضاء اللون ، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ الغول : حقيقته الإهلاك ، أي لا ينشأ من شربها أذى أو مكروه من صداع أو ألم معدة أو ضرر ﴿ ولا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون ﴾[٢] أي ولا تذهب هذه الخمر بعقولهم من السكر . ومن الملفت للنظر أن القرآن جمع معايب الخمر ومساوئها بلفظين فقط : غول ، وينزفون . وهذا من بلاغة القرآن التي اختص بها ﴿ وَعِنْدَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾ وعندهم زيادة في نعيمهم نساء قصرن أبصارهن عليهن فلا يمددنها إلى غيرهم لفرط محبتهن لهم . وعين : جمع عيناء وهي الواسعة العينين في جمال ، وقيل : الشديدات بياض العين ، الشديدات سوادها ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْض مَكْنُونٌ ﴾[٣] البَيْض المراد به بيض النعام . والمكنون : المصون . فهؤلاء النسوة شبهن ببيض النعام الذي يغطيه الريش والمصون من الغبار ونحوه ، والعرب تشبه المرأة الحسناء بالبيضة لصفائها وبياضها ، وقيل المراد به : اللؤلؤ المكنون شبهت النساء به لبياضه وصفائه .

---

(١) جاء في القرآن : ﴿ وانهار من خمر لذة للشاربين ﴾ .

(٢) نزف الشارب : ذهب عقله وأضاع رشده .

(٣) خص تشبيههن ببيض النعام على عادة العرب في تشبيه النساء به وهو مشهور بصفائه وكونه أحسن منظراً من غيره ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لمعان .

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

شرح المفردات

قَرِينٌ : صديق .

أئِنَّا لَمَدِينُونَ : أئنا لمجزيون على أعمالنا ومحاسبون .

سَوَاءِ الجَحِيم : وسط جهنم .

إن كِدْتَ لَتُرْدِين : أي قاربت أن تهلكني بإغوائك .

لَكُنْتُ مِن المحْضَرِينَ : لكنت من الذين أُحضروا معك إلى النار .

نُزُلاً : ضيافة وتكرمة ورزقاً .

فِتْنَةً للظالمين : محنة لهم بإرغامهم على أكلها وعذاباً لهم .

طَلْعُهَا : ثمرها .

لَشَوْباً مِنْ حَمِيم : أي خلطاً من الماء الحار يشربون عليها .

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

شرح المفردات

أَلْفَوْا : وجدوا .

يُهْرَعُونَ : يسرعون .

مُنْذِرين : رسلاً يخوفونهم عقاب اللَّه على عصيانه .

تابع سُورَة الصَّافات

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك ما يدور بين أهل الجنة من حوار حول أهل النار :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنّي كَانَ لي قَرِينٌ . يَقُولُ أَءِنكَ لَمِنَ المصَدِّقِينَ . أَءِذا مِتْنَا وَكُنّا تُراباً وَعِظاماً أَءِنّا لَمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرآهُ في سَوَاءِ الجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ . وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبي لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ﴾ (٥٠-٥٧) .

فأهل الجنة يقبل بعضهم على بعض هناك ويتذاكرون عما جرى لهم في الدنيا ، فيقول قائل منهم : ﴿ إِنّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ أي كان لي في الدنيا صديق وصاحب يلازمني ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ المصَدِّقِينَ ﴾ وكان هذا القرين يقول لي : أأنت تصدّق بالبعث والحساب والجزاء ، يقول ذلك على وجه التعجب والاستبعاد والكفر ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُراباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي أءِذَا متنا وتحلّلت أجسادنا إلى تراب وعظام هل نحن مجزيون ومحاسبون بعد الموت ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ ﴾ أي قال هذا

المؤمن لإخوانه في الجنة : اطلعوا إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ في سَوَاءِ الجَحِيمِ ﴾ فاطلع هذا المؤمن إلى النار فرأى هذا القرين المنكر للبعث في وسط جهنم يعذب بنارها ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾ قال هذا المؤمن لقرينه الذي حاول إغواءه في الدنيا : واللَّه إنك كنت على وشك أن تهلكني بما وسوست لي من عدم التصديق بالبعث إذن لكنت هلكت مثلك ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبّي لَكُنْتُ مِنَ المحْضَرِينَ ﴾ ولولا رحمة ربي وإنعامه عليَّ بالهداية لكنت من المحضرين معك في النار .

هذه الأمور التي ستقع يوم القيامة يصوّرها القرآن بهذه الصورة المريعة للتحذير من عاقبة الكفر باللّه واليوم الآخر ، ومن جهةٍ أخرى فيها دعوة لتجنب القرين الفاسد الضال ، ذلك أن القرين إن كان صالحاً كان له التأثير الحسن والعاقبة المحمودة على صاحبه ، وإن كان هذا القرين فاسداً ساعد على إضلال صاحبه بتزيينه له المعاصي والآثام ، فالقرين له تأثير لا يستهان به على من يعاشره .

ويتابع القرآن فيذكر ما يقوله هذا المؤمن لإخوانه في الجنة بعد أن فرغ من مخاطبة قرينه الذي يُعذب في النار :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ ﴾ (٥٨ - ٦١) .

فهذا المؤمن يقول مبتهجاً بما أتاح اللَّه له ولإخوانه من الفضل العظيم ﴿ أَفَمَا[1] نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ أي أنحن مخلدون منعمون ؟ فما نحن بميتين

---

(١) أفما : الهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام : أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين .

بمن شأنه الموت ﴿ إِلاَّ مَوْتَتَنا الأُولَى ﴾ إلاّ الموتة الأولى التي كانت في الدنيا[١] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وما نحن بمعذبين كما يُعذّبُ الكفار ، فنجاتهم من العذاب نعمة جليلة تستوجب التحدث بها ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ إن هذا الذي هم عليه من النعيم لهو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ ﴾ أي لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا لينالوا ما حصل عليه المؤمنون بطاعة ربهم .

وبعد أن ذَكَرَ القرآن نعيم المؤمنين في الجنة وما هم عليه من مأكل ومشرب انتقل إلى وصف أحوال الكفار في جهنم ومأكلهم ومشربهم فيها :

﴿ أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحيم . طَلْعُهَا كَأَنه رُءُوسُ الشياطين . فَإِنَّهُم لآكِلُونَ مِنْهَا فَمالِئُونَ مِنْهَا البُطون . ثُمَّ إِنَّ لَهُم عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحِيمِ ﴾ (٦٢ - ٦٨) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً ﴾[٢] أي أذلك الرزق لأهل الجنة وما فيها من فواكه ومشارب وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم ﴾ أم شجرة الزقوم المعدة لطعام أهل النار ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً للظَّالِمِينَ ﴾ أي إنا جعلناها محنة وعذاباً للمشركين ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحِيمِ ﴾ إنها شجرة منبتها في أسفل النار وقعرها ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ثمرها الذي يطلع منها هو في تناهي قبحه وكراهيته كأنه رؤوس الشياطين في قبح منظرها وبشاعتها ، يُجبر أهل النار

(١) إن عِلْمَ المؤمنين بأنهم لا يموتون ناشىء عن قول الملائكة لهم حين دخولهم الجنة ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

(٢) نزلاً : النزل يطلق على المنزل أو ما يعد للضيف من طعام وغيره .

على أكله ، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان . والتشبيه بالشيطان هو تشبيه بما يتخيله الوهم وإن لم يره الإنسان ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض ، لهذا جرت العادة على تصوير الشيطان بأن له أنياباً ورؤوساً بشعة تثير الهلع في النفوس ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فإن المشركين لآكلون من ثمر الزقوم هذه فهذا هو طعامهم وفاكهتهم ، وإنهم لشدة جوعهم يملأون منها بطونهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب : الخلط والمزج . والحميم : الماء الحار الذي تناهى حره[١] ، أي أنهم إذا شبعوا واشتد عطشهم يسقون من الماء الشديد الحرارة فيختلط بالزقوم ويمتزج به في أمعائهم ويقطعها ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجَحِيمِ ﴾ ثم إن مآبهم ومصيرهم إلى عذاب النار ، ذلك أن الزقوم والحميم يقدم إليهم قبل دخول النار ثم يردون إليها .

ويتابع القرآن فيذكر أن استحقاق المشركين لهذا العذاب هو بسبب اتباعهم الأعمى لآبائهم في الكفر :

﴿ إِنَّهُم أَلْفَوْا آبَاءَهُم ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِم يُهْرَعُونَ . وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُنْذِرِينَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنْذَرِينَ . إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المخْلَصِينَ ﴾ (٦٩ - ٧٤) .

فاللّه سبحانه يبين أسباب ضلال المشركين الذين أوردهم العذاب : ﴿ إِنَّهُم أَلْفَوْا آبَاءَهُم ضَالِّينَ ﴾ أي إنهم وجدوا آباءهم ضالين ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِم يُهْرَعُونَ ﴾ فهم يسرعون الخطى على آثارهم مقلدين لهم من غير تدبر ولا بصيرة ، وكان بالأحرى أن لا يجاروهم على ضلالهم . وتأمل كيف

(١) جاء في القرآن : ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ .

وصف اللّه المشركين بالإسراع في تقليد الآبـاء ، وهذا كنـاية عن التقليـد الأعمى بدون روية ولا إمعان فكر . لأنهم لو استعملوا عقولهم لترددوا كثيراً في مجاراة آبائهم في ضلالهم .

فتقليـد الآباء هـو أشد مـا ابتليت به الجمـاعات البشـرية في تـاريخها القديم والحديث ، فكثير من الجماعات اعتنقت عقائد باطلة فورثها الأبنـاء عن الآباء تقليداً لهم بدون تمحيص ولا إمعان فكـر ، فظلت هـذه الشعوب على ضلالها لا تحيد عنه ، وجـاء الإسلام ففجـر ثورة على التقليـد للآبـاء بدون روية ولا دليل ، وحث العقل والفكر والتأمـل أن يأخـذوا دورهم في عدم تقبل عقائد الآباء والأجداد التي ثبت ضلالها ، وتخـطيها إلى العقيـدة الصحيحة التي تَتمشى مع العقل والمنطق .

ويتابع القرآن الكلام عن المشركين من أهل مكة : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي ولقد ضل عن طريق الإيمـان قبل كفـار مكة أكثـر الأمم الماضية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُنْذِرِينَ ﴾ ولقد أرسـل الله في الأمم الماضيـة رسلاً من عنده منذرين يخوفونهم عاقبة الكفر ، فأبوا الإيمـان وكذبـوا رسل اللّه ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنْذَرِينَ ﴾ فانظر وتـأمل يـا محمد كيف كـان مآل هذه الأمم التي أنذرها رسلهـا ولم ترتـدع ، ألم يهلكهم اللّه ويجعلهم للناس من بعدهم عبرة وعظة ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المخْلَصِينَ ﴾ إلاّ الذين آمنـوا منهم وأخلصهم اللّه لـدينه واختـارهم لطاعتـه فهؤلاء نجـوا من عقـاب اللّه وفازوا بثوابه في الجنة .

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ

شرح المفردات

تَرَكْنَا عليه في الآخرين : أبقينا عليه ذكراً حسناً فيمن جاء بعده .

شيعَته : من سار على دينه ومنهجه .

أإفْكاً : أكذباً وباطلاً ؟ .

فَمَا ظَنُّكُمْ بربِّ العالمين : أي إذا عبدتم غيره هل يتركم بلا عقاب ، لا !

فتَوَلَّوا عَنْهُ مُدْبِرينَ : فأعرضوا عنه مولين له ظهورهم .

فَرَاغَ إلَى آلهتِهم : فمال خفية إلى آلهتهم .

يَزِفُّونَ : يسرعون المشي .

فأرادوا به كيداً : فأرادوا به شراً وهو أن يحرقوه .

ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ
قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ
لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ
بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

شرح المفردات

فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ : أي المقهورين حيث سلَّم اللّٰه إبراهيم من الحريق .

بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ : بلغ السن التي يساعد فيها أباه في حوائجه .

فَلَمَّا أَسْلَمَا : فلما استسلما وانقادا لأمر اللّٰه .

تَلَّهُ للجَبِينِ : أضجعه على جبينه على الأرض .

البَلاءُ المبينُ : الاختبار الظاهر الواضح .

بِذِبْحٍ عَظِيمٍ : بكبش ضخم الجثة .

تابع سُورَة الصَّافَّات

ثم شرع القرآن في ذكر سبع قصص تعرض بإيجاز سيرة بعض رسل اللّٰه الذين أرسلهم سبحانه إلى الأمم الغابرة ، مبيناً حسن العاقبة التي تمت لهم ، وسوء العاقبة التي لحقت بأممهم الذين آثروا الضلال على الهدى ، وأول هذه القصص قصة نوح :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ . وَجعلْنا ذُرِّيتَهُ هُمُ البَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ في الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَى نُوحٍ في العَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ (٧٥ ـ ٨٢) .

فاللّٰه سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾[١] والمراد بنداء نوح ربه هو دعاؤه له والاستغاثة به حين يئس من قومه ﴿ فَلَنِعْم المجيبون ﴾[٢] أي فواللّٰه لنعم المجيبون نحن ، إنا أجبناه أحسن الإجابة ، ونصرناه على أعدائه ، وأهلكنا قومه بالطوفان ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ ﴾ أي ونجينا نوحاً والذين آمنوا معه من الغرق والطوفان ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ ﴾ وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مهلك قومه . وكان لنوح ثلاثة أولاد : سام ويافث وحام ، فالعجم والعرب أولاد سام ، والترك والصقالبة أولاد يافث ، والسودان والسند والهند والنوب والزنج والحبشة والبربر أولاد حام . بالإضافة إلى ولد رابع لنوح غرق في الطوفان .

---

(١) دعاء نوح ذكره القرآن بقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ ، ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ .

(٢) فلنعم المجيبون : اللام الداخلة على نِعْمَ جواب قسم محذوف التقدير : واللّٰه لنعم المجيبون والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : نحن .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ أي وأبقينا على نوح ذكراً جميلاً وثناءً حسناً فيمن تأخر بعده من الناس يذكرونه بالخير حيث يقولون : ﴿ سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ ﴾ تحية سلام من الإنس والجن والملائكة على نوح إلى آخر الدهر ، والسلام على نوح بمعنى الثناء عليه والدعاء له بالرحمة ، وسلامة له من أن يُذكر بسوء ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجزي المحْسِنينَ ﴾ علل اللّه هذه التحية له بأنه كان محسناً يطيع اللّه ويصبر على الأذى في سبيله ، ثم علل الإحسان بـ ﴿ إِنَّه مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ أي إنه كان قائماً بحق العبودية للّه مؤمناً به وموحداً له ، وفي هذا تنويه بالإيمان وقدره العظيم ليحرص الناس على بلوغه ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ ثم أغرق اللّه كفار قوم نوح أجمعين .

وبعد قصة نوح تأتي قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لأَبِيه وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٨٣ ـ ٨٧) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبراهيمَ ﴾ أي من أهل دين نوح ومنهاجه وسنته إبراهيم عليه السلام ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ والمراد بمجيئه إلى ربه بقلبه : إخلاص قلبه له ، والقلب السليم هو القلب السالم من جميع الآفات كفساد العقائد ، والنيات السيئة ، والصفات القبيحة ﴿ إِذْ قَالَ لأَبيه وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي حين قال لأبيه وقومه : أي شيء تعبدونه ؟ يقصد بهذا السؤال توبيخهم وإنكار ما هم عليه من عبادة الأصنام . وتابع إبراهيم قوله : ﴿ أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُريدونَ ﴾ الإفك : أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، أي أتريدون آلهة من دون الله كذباً

وافتراءً في جعلها آلهة تُعبد ؟ ثم وجه إليهم هذا السؤال : ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمينَ ﴾ أي فما ظنكم أيها القوم أن اللّه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أن يترككم بلا عقاب ، لا .

وبعد أن وبخهم إبراهيم على عبادة غير الله أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع ، فبيّت في نفسه أمراً ، ولما كان الغد وكان يوم عيد عندهم دعوه لمرافقتهم فأبى معتذراً عن عدم حضور الاحتفال ، ومقرراً العزم على تحطيم أصنامهم إذا خلا بها ، وهذا ما حصل :

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النّجوم . فَقَال إِني سَقِيمٌ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرين . فَرَاغَ إِلَى آلهتهم فَقَالَ ألا تأْكُلُونَ . مَالكم لا تَنْطِقُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِم ضَرْبَاً باليمين ﴾ (٨٨ ـ ٩٣) .

لقد كان قوم إبراهيم يتعاطون التنجيم فاستدل به كما هو متعارف بينهم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النجوم ﴾ أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم بعلم النجوم[1] فأوهمهم أنه استدل بالنظر إليها على أنه سيمرض ﴿ فَقَال إِنّي سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للمرض وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عندهم وكانوا يخافون منه العدوى ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرينَ ﴾ أي أعرضوا عنه مسرعين في الابتعاد عنه .

---

(١) إن مولد إبراهيم عليه السلام كان في بابل في بلاد ما بين النهرين على شاطىء الفرات وكان أهل بابل يتعاطون التنجيم فقد جاء في كتاب قصة الحضارة تأليف ودل ديورانت : « فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على مسير القوافل والسفن بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين . . . وأضحت الجهود التي تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين » جـ ٢ ص ١١ وما بعدها .

ونظرة إبراهيم إلى النجوم لم تكن نظرة قومه إليها بل كان نظره إليها نظرة اعتبار وإيمان بالخالق ، نظر إليها ليرى عظمة الله في خلقها .

أما قول إبراهيم بأنه سقيم ، والحال أنه لم يكن سقيماً قد يكون بأنه قصد بأنه سقيم القلب من عبادتهم للأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، أو أنه قصد بأنه سيسقم وإن كل إنسان لا بدّ أن يسقم وهذا ما يسمى في علم البلاغة بالتورية التي يؤدي ظاهرها إلى معنى يفهمه السامع ، ويريد منها المتكلم معنى آخر ليتفادى به المرء الأخطار .

ثم يذكر القرآن كيف حاور إبراهيم أصنام قومه : ﴿ فَرَاغَ إلى آلهتهم فَقَال ألا تأكلونَ ﴾ أي ذهب إبراهيم خفية إلى أصنامهم التي يعبدونها وقال لها على سبيل الاستهزاء ألا تأكلون . وكان قوم إبراهيم يضعون في أيام أعيادهم طعاماً لدى أصنامهم قرباناً لها ولتبارك فيه على زعمهم[1] .

وتابع إبراهيم مخاطباً الأصنام ﴿ مَا لَكُم لا تَنْطِقُونَ ﴾ أي ما لكم لا تجيبون ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِم ضَرْباً بِاليمين ﴾ أي مال خفية على الأصنام يضربها ويحطمها بيده اليمنى : وقيل المراد باليمين : القوة ، أي يضربها بكمال قوته ، لأن اليد اليمنى أكمل قوة .

فإبراهيم بتحطيمه الأصنام أقام دليلاً حسياً لقومه على بطلان عبادتها ،

---

(١) جاء في كتاب قصة الحضارة : « وكان الملوك في بابل يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة فشادوا لها الهياكل وأمدوها بالأثاث والطعام . . . وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرّب من القرابين » نفس المصدر السابق .
إن هذه الحقائق التي ذكرها القرآن عن أهل بابل والتي اعترف بها المؤرخون من قريب لهي نصر علمي للقرآن فهي لم تكن معلومة في عصر محمد وفي بيئته ولم يكشف عن أسرارها إلاّ منذ أمد قريب وذلك بعد أن قام العلماء بالحفريات في أرض بابل وعثروا على الألواح التي كتب عليها باللغة المسمارية معتقدات أهل بابل آنذاك .

فلو كانت آلهة حقيقية كما يعتقدون لدافعت عن نفسها ولأصابت بالضرر من أرادها بسوء[1]

وبعد تحطيم إبراهيم للأصنام رجع قومه إلى المعبد فرأوا ما حل بأصنامهم من تحطيم وتكسير لها فتحرّوا عن الفاعل فعلموا أنه إبراهيم وهنا يعرض القرآن لمحة سريعة عن محاكمته وعن دفاعه عن نفسه وتأنيبه لقومه :

﴿ فَأَقْبَلُوا إليهِ يَزِفُّونَ . قَالَ أَتَعْبُدونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٤ - ٩٦) .

فاللّه سبحانه يقول: ﴿ فَأَقْبَلُوا إلَيهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي فاقبل قوم إبراهيم إليه بعد رجوعهم من عيدهم مسرعين ، وفي الكلام إيجاز وحذف تقديره : نحن نعبدها وأنت تكسرها يا إبراهيم ، فأنبهم إبراهيم على عبادتهم للأصنام بهذه الكلمة الرائعة : ﴿ أتعبُدونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ بهذا الإيجاز المدهش والدليل المفحم بيّن إبراهيم حقارة عبادة الأصنام وبطلانها[2] .

ثم يتابع إبراهيم قوله لقومه : ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن اللّه خلقكم أيها القوم وما تعملونه من أصنام ، أي خلق المادة التي

---

(١) هذه الحقيقة فطن لها الامبراطور (هيديوشي) إمبراطور اليابان فقد شيد هذا الأمبراطور تمثالاً ضخماً لبوذا . . . ولم يكد يتم بناؤه حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ ميلادية فألقت به على الأرض هشيماً ، ويُروى في اليابان ان (هيديوشي) رمى الصنم المحطم بسهم قائلاً له في ازدراء : لقد أقمتك ها هنا بباهظ النفقات فلم تستطع حتى حماية معبدك (قصة الحضارة - ول ديورانت . جـ ٥ ص ١٣٣) .

(٢) قرأنا في الأمثال الصينية : « ليس من صانعي تماثيل الآلهة من يعبدها فإنهم يعرفون من أي مادة تصنع » .

منها تصنعون أصنامكم ، فكيف يعبد الإنسان المخلوق مخلوقاً مثله ، أما كان الأجدر أن يعبد اللّه الخالق لا الصنم المخلوق .

ولما رأى القوم أنهم غُلِبوا على أمرهم ، عمدوا إلى البطش يسترون به فضيحتهم فأصدروا حكمهم على إبراهيم بالموت حرقاً :

﴿ قالوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ في الجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ . وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٩٧ ـ ٩٩) .

فهؤلاء القوم قرّ رأيهم على أن يبنوا لإبراهيم بنياناً من الحجارة ويملأوه حطباً ويوقدوه ﴿ فَأَلْقُوهُ في الجحيم ﴾ أي فاطرحوه في تلك النار المتأججة ، والجحيم في اللغة : جمر النار بعضه على بعض ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً ﴾ أي احتالوا لإهلاكه ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ فجعلناهم المقهورين المغلوبين ، لأن النار لم تحقق غايتهم ، وذلك أن اللّه خاطب النار كما جاء في سورة الأنبياء : ﴿ وَقُلْنَا يَا نَار كوني بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبراهيم ﴾ فلم تصب النار إبراهيم بأي أذى وكان ذلك معجزة خصه اللّه بها .

وبعد أن نجّاه اللّه من الموت حرقاً قرر الهجرة من أرض قومه فقال : ﴿ إني ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي إني مهاجر من بلدة قومي إلى المكان الذي أتمكن فيه من عبادة ربي ، إن ربي سيهديني إلى المكان الذي سأهاجر إليه وإلى ما فيه صلاح ديني ، قيل إن هذا المكان الذي هاجر إليه هو أرض الشام . وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ إنّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي إني متوجه إلى ربي بقلبي كي يهديني ، وليس المقصود الهجرة بالمكان لأن اللّه تعالى ليس موجوداً في مكان معين ليقصده إبراهيم عليه السلام .

إن قول إبراهيم : ﴿ إنّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ فيه من العبودية للّه أعمق معانيها ، وفيه الانسلاخ من رغبات النفس وأهوائها إلى الانسجام مع إرادة الخالق ، قول ما أحرى بالمؤمن أن يردده بلسانه ويتطبّع به في توجهاته عندما تكفهر في حياته المحن ، ويسد في وجهه باب الفرج ، أو عندما يضطهد في دينه ، فالهجرة إلى اللّه بالقلب تضفي على النفس طمأنينة وسكينة وتمدها بالقوة والعزيمة لأنها تصلها بالخالق مصدر القوة والخير ، هذا من الناحية الروحية ، أما من الناحية المادية فإن أرض اللّه واسعة وعلى الإنسان أن يهاجر إلى المكان الذي يكون فيه آمناً على نفسه في عبادته ، بعيداً عن الفتن وعن كل ما يهدد عقيدته وحريته في أداء شعائر اللّه ، والمحافظة على أسرته إذا تيسّر له ذلك .

وبعد هجرة إبراهيم يذكر القرآن بأنه سأل ربه أن يرزقه ولداً يؤنس وحدته في غربته ، فاستجاب اللّه دعاءه :

﴿ رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالحين . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٠٠-١٠٢) .

فإبراهيم دعا ربه ﴿ رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالحين ﴾ أي أعطني يا رب ولداً صالحاً يطيعك ولا يعصيك ، ويصلح في الأرض ولا يفسد ، وهنا نتوقف لنتعظ بأن دعاء إبراهيم هو أمثولة يجب أن يقتدي بها كل مؤمن ، وأن يسأل ربه ـ عندما يرغب بالولد ـ أن يرزقه الولد الصالح ، وأن يحرص على توجيهه وتربيته التربية الصالحة ، إذ بذلك يكون الولد قرة أعين والديه ، أما الولد الفاسد فهو مصيبة وعبء ثقيل على والديه ، وخطر على مجتمعه .

استجاب اللَّه دعاء إبراهيم : ﴿ فَبَشَّرْنَـاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أي بشّر اللَّه إبراهيم بغلام حليم ، والمراد أنه سيكون حليماً عند كبره فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حيّاً حتى يكبر ويصير حليماً ، لأن الصغير لا يوصف بالحلم ، والحلم نقيض السفه ، ومن معنى الحلم : الأناة والتثبت في الأمور ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ في هذه الآية حذف تقديره : فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه ، ويعمل معه في أمور دنياه ، وقيل المراد بالسعي : العمل للَّه وهو العبادة ، أي أصبح في سن يشارك أباه في العبادة ﴿ قَالَ يَـا بُنَيَّ إِنِي أرى في المنَامِ أَنِّي أَذْبَحُـكَ ﴾ فقول إبراهيم : يا بني ، نداء فيه شفقة وترحم ، ورؤيا إبراهيم بالنسبة إليه هي وحي من اللَّه ، وقول إبراهيم لابنه : إني أذبحك أي أمرت من الله بذبحك . وتابع إبراهيم قوله : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَـرَى ﴾ أي فانظر يا بنيّ في الأمر وما رأيك فيه ، وإنما شاور إبراهيم ابنه بالأمر ليختبر إيمانه وصبره وعزمه على طاعة اللَّه ، وليهون عليه فعل ما أمره اللَّه تعالى ، وهو في الأحوال كلها ماضٍ لتنفيذ أمر اللَّه .

وماذا كان جواب الابن على ذلك الأمر العظيم ؟ لقد قال : ﴿ يَـا أَبَتِ افْعَلْ ما تؤمر سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي نفّذ ما أمرك اللَّه به ستجدني إن شاء اللَّه صابراً على الذبح وعلى قضاء اللَّه . هذا القول يتمثل فيه الرضى بتضحية النفس في سبيل اللَّه ، يقابل ذلك تضحية الوالد بولده وهو الحريص على بقائه وقد رُزق به في شيخوخته ، ما أعظم هذه التضحية المزدوجة وما أجلها .

ثم يتحدث القرآن عن شروع إبراهيم في عملية الذبح وما أعقب ذلك من أحداث :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إبراهيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نجزي المحْسِنين . إنَّ هَـذَا لَهُوَ البلاءُ المبينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَـا عَلَيْهِ في الآخِـرِينَ . سَلَامٌ على إبـراهيم . كَذَلِـكَ نَجْزي المحْسِنينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بإِسحٰق نبياً مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَـارَكْنَـا عَلَيْـهِ وَعَلى إسحٰق وَمِنْ ذرِّيتِهِمَـا مُحْسِنٌ وَظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ مُبِينٌ ﴾ (١٠٣ - ١١٣) .

فاللَّه سبحانـه يقول : ﴿ فَلَمَّـا أَسْلَمَا ﴾ أي لمـا استسلم إبراهيم وابنـه لأمـر اللَّه ورضيا بقضـائـه وخضعـا لمشيئتـه ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي وطـرحـه على الأرض على جبينه وأراد أن يذبحه ، وقيل إنه أعمل السكين في رقبته فلم تقـطع ، وقيل كبّـه على وجهه كي لا تقـع عينه على عين أبيـه فتدركـه الرحمة فيتردد في إطاعـة أمر ربـه ﴿ وَنَادَيْنَـاهُ أَنْ يَا إِبـراهيمُ ﴾ أي ناداه من خلفـه ملك من الملائكـة مرسـل من اللَّه يبلّغه ﴿ أن قَـدْ صَدَّقْتَ الـرُّؤيَا ﴾ وتصـديق إبراهيم للرؤيـا هي توفية حقها من العمـل ، وبـذل الـوسـع في إيقاعها فحصـل المقصود منهـا ، وأن اللَّه صرف ذلـك عنه ومنعـه من ذبح ولـده ﴿ إنا كَذَلِكَ نَجْـزي المحْسِنِينَ ﴾ تعليل لتفـريج تلك الكـربة عنهمـا بسبب إحسـانهما ، واللَّه يجـزي المحسنين في أعمالهم الصـادقين مع اللَّه في نـواياهم بـالخلاص من الشـدائد والسـلامة من المحن ﴿ إنَّ هَـذَا لَهُـوَ البَلَاءُ المبينُ ﴾ أي إن هذا الذبح الذي أمر اللَّه به إبراهيم لابنه لهو ابتـلاء واختبار بيّن واضح يتميز فيه المخلص من غيره .

فالحكمة من الأمر بالذبح هو اختبار إيمان إبراهيم وابنه وإظهار مـا كان منهمـا من الصبر والتسليم والإذعـان لأمر اللَّه والـرضا بقضـائـه ﴿ وَفَـدَيْنَـاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي وفدى اللَّه ولد إبراهيم بكبش عظيم الجثة سمين يذبحه

بدلاً وفداءً عن ولده[١] ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ أي وأبقى اللَّه على إبراهيم ذكراً جميلاً وثناءً حسناً فيمن جاء بعده من الناس يذكرونه بالخير ﴿ سَلَامٌ عَلَى إبراهِيمَ ﴾ ثناءً على إبراهيم بالجميل ودعاء له بالرحمة ، وسلامة له من أن يُذكر بسوء ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم يجزي اللَّه من انقاد لأمره ، وخضع لمشيئته ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنينَ ﴾ إنه من الذين أعطوا العبودية حقها للَّه سبحانه ، وكان راسخاً في إيمانه باللَّه تعالى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بإسحٰق نبياً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي بشرنا إبراهيم بولد يولد له اسمه إسحٰق ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك ، وفي وصف إسحٰق بالصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلى إسحٰق ﴾ البركة : هي الخير والنماء ، أي باركنا عليهما بإفاضة خيرات الدنيا والآخرة وأخرجنا من صلبيهما كثيراً من الأنبياء ﴿ وَمِنْ ذُرِّيتهمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ أي ومن ذريتهما من هو محسن في عمله أو لنفسه بالإيمان والطاعة ومنهم من هو ظاهر ظلمه لنفسه بالكفر والمعاصي ، وفي هذا تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلال ، وأن الظلم والضلال في ذريتهما لا يعود عليهما بمنقصة أو عيب .

---

(١) روي أن هذا الكبش رعى أربعين سنة في الجنة .

من الذبيح ؟ إسماعيل أم إسحٰق :

لم ينص القرآن على تعيين اسم الذبيح ، ولكن يفهم من آيات القرآن أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، وهذا ما يتراءى لنا من الوجوه الآتية :

أولاً : إن اللَّه عندما وهب لإبراهيم غلاماً وصفه بالغلام الحليم ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ ثم ذكر قصة الذبح ، وبعدها قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بإسحٰق نبيّاً ﴾ فالإتيان بالبشرى بإسحٰق بعد ذكر قصة الذبح صريح في أن إسحٰق غير الغلام الذي ابتلي إبراهيم بذبحه . هذا ولما بشّرت الملائكة إبراهيم بإسحٰق قالوا له كما جاء في القرآن : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيم ﴾ بينما الولد الذبيح جاء وصفه في القرآن : ﴿ فبشرناه بغُلامٍ حَليم ﴾ .

ثانياً : إن البشارة بإسحٰق وقعت مقرونة بولادة يعقوب منه كما قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاه بإسحٰق وَمِن وَرَاءِ إسحٰق يَعْقوبَ ﴾ أي بشر الله إبراهيم بالولد وولد الولد ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتصور الأمر بذبح إسحٰق مراهقاً قبل ولادة ولده يعقوب ، ووعد اللَّه حق ، ولا يخلف اللَّه وعده .

ثالثاً : وصف اللَّه إسماعيل بالصبر ، جاء في القرآن ﴿ وإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابرين ﴾ ولم يصف اللَّه إسحٰق بصفة الصبر . ووصف إسماعيل بالصبر ينسجم ويتوافق مع قول الذبيح : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرينَ ﴾ وعلى هذا يتعين أن الذبيح هو إسماعيل المتحلي بصفة الصبر .

وهناك أمور أخرى تعزز هذا الرأي :

منها : أن ما وقع من حادث الذبح كان بضاحية مكة ـ منى ـ

وإسماعيل هاجر إليها مع والده وهو صغير ، وعندما كبر قليلاً رفع قواعد الكعبة مع والده إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعيل ﴾ .

ومنها : أن قرني الكبش الذي فدى اللَّه إبراهيم به ولده كانا معلقين في الكعبة حتى احترقا أيام حصار الحجاج عبد اللَّه بن الزبير ، وكانا قد توارثتهما قريش خلفاً عن سلف ، والظاهر أن ذلك لم يكن منهم إلاّ للفخر ، ولا يتم لهم الفخر إذا كان الكبش فداء لإسحٰق .

ومنها : أن إعرابياً قال للرسول محمد ﷺ « يا ابن الذبيحين » فتبسم رسول اللَّه إقراراً بذلك ولم ينكر عليه ، والذبيحان أحدهما جده إسماعيل الذي يطلق عليه لقب الأب ، والآخر أبوه عبد اللَّه . وتوضيح ذلك أن جد النبي ﷺ عبد المطلب والد عبد اللَّه نذر ذبح ولد له فخرج السهم ـ أي القرعة ـ على عبد اللَّه فمنعه أخواله وقالوا له : افتدِ ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بها .

أما اليهود فيدعون أن الذبيح هو إسحٰق ، جاء في سفر التكوين[١] ما نصه : « قال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحٰق وامض إلى أرض مورية[٢] . . فلما أفضيا إلى الموضع الذي أشار له اللَّه إليه بنى إبراهيم هنا المذبح ونضد الحطب، وأوثق إسحٰق ابنه وألقاه على المذبح فوق الحطب ، ومد إبراهيم يده فأخذ السكين ليذبح ولده » .

وقد رد الإمام ابن كثير على هذا الادعاء فقال : لفظ إسحٰق هنا

---

(١) الفصل ٢٢ (١ ـ ١٠) .
(٢) مورية : مكان في القدس .

مقحم لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر[١] ، وإنما ذاك هو إسماعيل ، وإنما حمل اليهود على هذا الزعم حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز والذين منهم رسول اللَّه محمد ﷺ ، أما إسحٰق فهو والد يعقوب الذي يطلق عليه اسم إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا الكلام وزادوا فيه[٢] .

---

(١) اليهود يعترفون بأن إسماعيل ولد قبل إسحٰق فقد جاء في سفر التكوين (١٦ : ١٦) أن عمر إبراهيم كان ستاً وثمانين سنة حين ولدت هاجر إسماعيل . وأن إبراهيم بشر بإسحٰق وعمره مائة سنة (١٧ : ١٨) فكيف يقولون عن إسحٰق إنه وحيد إبراهيم ، بل إن وحيده حسب نص سفر التكوين هو إسماعيل الذي ولد قبل إسحٰق .
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ ١ ، ص ١٥٩ .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾
وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ
إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ
بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

شرح المفردات

الكتاب المسْتَبِين : البالغ النهاية في البيان والتفصيل وهو التوراة .

أَتَدْعُونَ بَعْلاً : أتعبدون صنماً اسمه بعل .

وَتَذَرُونَ : وتتركون .

في الغَابِرين : أي من الباقين في العذاب .

دَمَّرْنَا الآخرينَ : أهلكنا غير المؤمنين .

مُصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصباح .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ
فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ
بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ
إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

شرح المفردات

أبق : هرب من سيده .

المشحون : المملوء .

فَسَاهَمَ : فاقترع .

الْمُدْحَضِينَ : المغلوبين بالقرعة .

فالتَقَمَهُ : فابتلعه .

مُليم : مذنب وفاعل بما يُلام عليه .

المسبّحين : المصلين ، أو الذاكرين اللّه بالتسبيح .

فَنَبَذْنَاه بالعَرَاءِ : فألقيناه في أرض خالية من الشجر .

شَجَرةً مِنْ يَقْطِينٍ : شجر لا يقوم على ساق (القرع)

تابع سورة الصافات

ولنعد إلى متابعة السورة فبعد الكلام عن إبراهيم وذريته يأتي الكلام عن قصة موسى وهارون عليهما السلام :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارونَ . وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانوا هُمُ الغَالِبِينَ . وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّراطَ المسْتَقِيمَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا في الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نجزي المحسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤْمِنِينَ ﴾ (١١٤ - ١٢٢) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ[1] مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أي وعزتنا وجلالنا قد تفضلنا وأنعمنا على موسى وهارون بالنبوة وغيرها من النعم العظيمة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ ﴾ المراد بقوم موسى وهارون هم المؤمنون من بني إسرائيل ، ونجاتهم من الكرب العظيم تشمل أمرين : الأول : نجاتهم مما هم فيه من استعباد فرعون إياهم ، وما كان يلحقهم من ذلك من البلاء ، والثاني : أن اللّه نجاهم من الغرق الذي أصاب فرعون وقومه ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ ﴾ أي ونصرناهم على عدوهم فكانوا بسبب ذلك هم الغالبين على عدوهم بعد أن كانوا مستعبدين لهم ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المسْتَبِينَ ﴾ المراد بالكتاب : التوراة ، والمستبين : البليغ البيان فيما أتى به من الحدود والأحكام ، أو الظاهر الواضح في أحكامه ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّراطَ المستَقِيمَ ﴾ أي أرشدناهما إلى الدين الحق ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِما في الآخِرِينَ ﴾ أي وأبقينا على موسى وهارون

(١) ولقد : معطوف على ما قبله عطف قصة على قصة ، واللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزتنا وجلالنا قد أنعمنا على موسى وهارون . .

بعد وفاتهما ثناءً حسناً يذكرهما الناس بالخير ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارون ﴾ أي جعلهما اللّه بحيث يُثنى عليهما ويُدعى لهما بالرحمة ، أو أمان لهما من اللّه في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزي المحْسِنِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الحسن يجزي اللّه المؤمنين المحسنين أعمالهم العاملين بما يرضي اللّه عنهم .

وبعد الكلام عن موسى وهارون عليهما السلام يأتي الكلام عن قصة إلياس عليه السلام :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ . اللّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهم لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ في الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسين . إِنَّا كَذَلِكَ نجزي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٣ - ١٣٢) .

إلياس : هو نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو من سبط هارون عليه السلام ، وقد أرسله اللّه لتبليغ دين اللّه ، وإخراج قومه من الظلمات إلى النور ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ألا تَتَّقُونَ ﴾ أي اذكر حين قال لقومه[1] : ألا تتّقون ، وهو استفهام بمعنى الأمر ، أي اتقوا اللّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتدعون : بمعنى أتعبدون . وبعل : اسم صنم لقوم إلياس كانوا يعبدونه من دون اللّه . وقيل بعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذا الدار ؟ أي من ربها ، والمعنى على هذا : أتعبدون بعض البعول عملتموها رباً ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ ﴾ وتتركون عبادة اللّه وهو

(١) قوم الياس سبط من بني إسرائيل ، ولما فتح الشام يوشع أسكنهم المدينة المعروفة اليوم باسم مدينة « بعلبك » .

الذي خلقكم وأوجدكم وهو أحسن من يُقال له خالق ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ اللَّه خالقكم وخالق آبائكم وأجدادكم الذين سبقوكم فهو وحده الجدير بالعبادة ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُم لَمُحْضَرُونَ ﴾ فكذبوا إلياس فيما دعاهم إليه من عبادة اللّه وحده ، وبسبب تكذيبهم له فإنهم يحضرون للعذاب يوم الجزاء ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصِينَ ﴾ إلاّ الذين أخلصهم اللّه لدينه وطاعته فإنهم نجوا من العذاب ﴿ سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِين ﴾[1] أمان من اللّه ورحمة على إلياس ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ ﴾ إن مثل هذا الجزاء الذي جازينا به هذا النبي بالسلام عليه نجزي كل محسن على إحسانه ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمِنِينَ ﴾ إن إلياس عبد من عبادنا الذين آمنوا فوحّدونا ولم يشركوا بنا أحداً في العبادة .

وبعد الكلام عن إلياس عليه السلام يأتي الكلام عن قصة لوط عليه السلام :

﴿ وإِنَّ لُوطاً لَمِنَ المُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزاً في الغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٣٣ - ١٣٨) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ أي إن لوطاً من جملة رسل اللّه الذين أرسلهم سبحانه لهداية قومهم ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي اذكر يا محمد حين نجينا لوطاً وأهله الذين آمنوا معه من العذاب الذي حلّ بقومه ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً في الغَابِرِينَ ﴾ استثنى اللّه امرأته

(١) إل ياسين : فيها قراءتان : « آل ياسين » و « إلْ ياسين » فمن قرأ « آل ياسين » أراد به : آل محمد . ومن قرأ : إلْ ياسين ففي ذلك وجهان : أحدهما أن يكون لغة في إلياس كما يقال : ميكال وميكائيل . والثاني أن تكون كلمة إل ياسين جمع إلياس أريد به هو وأتباعه المؤمنين .

التي لم تنجُ من العذاب ، والغابر : بمعنى الماضي أو الباقي ، أي امرأته كانت من الباقين في العذاب أو الماضين الهالكين ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم المدمرة من آثار العذاب أثناء أسفاركم إلى الشام وقت الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ وتمرون عليهم أيضاً في الليل ، أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكرون في هذه المنازل المدمرة وكيف دمرها اللّه على أهلها بسبب كفرهم فيداخلكم الخوف من أنه من سلك سبيل الكفر وتكذيب رسل اللّه لا بدّ أن يكون مصيره كمصير قوم لوط .

وبعد الكلام عن لوط عليه السلام تأتي القصة السابعة والأخيرة وهي قصة يونس عليه السلام :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ . فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرةً مِنْ يَقْطِينٍ . وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدُونَ . فآمنوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (١٣٩ - ١٤٨) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ أي أن يونس هو رسول من جملة رسل اللّه الذين أرسلهم سبحانه لهداية قومهم . وكان قوم يونس من أهل نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ، وأُطلق على يونس اسم : « ذا النون » أيضاً ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أي كان من أمره أنه أبق وهجر قومه بغير إذن ربه ، والإباق هرب العبد من سيده ، ولما كان هرب يونس من قومه بغير إذن ربه سمى اللّه هربه إباقاً لأن اللّه سيده وهو عبد له ، وكان من المفروض أن يأخذ الإذن من اللّه قبل أن يغادر قومه ﴿ إِلَى

الفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي بعد أن هجر قومه ركب في سفينة مملوءة بالركاب والأمتعة . ويروى أن السفينة التي ركبها يونس قد لعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرف ركابها على الغرق فقال الملاحون : بيننا رجل عصى ربه ، ولا بدَّ لنجاة السفينة من إلقائه في البحر فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس ، وهذا ما ذكره سبحانه : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي فاقترع فكان من المغلوبين في القرعة ، فألقي في البحر على حسب عرفهم في ذلك الحين ﴿ فَالْتَقَمَهُ الحوتُ وَهُو مُلِيمٌ ﴾ فابتلعه الحوت وهو مستحق للملامة جزاء هروبه من الدعوة إلى اللّه والصبر على ذلك ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِين ﴾ أي فلولا أن يونس كان من المصلين الذاكرين اللّه كثيراً المنزهين له عن النقص والسوء ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة ولكن لأنه كان من المسبحين لذا فقد أنقذه اللّه ونجاه من بطن الحوت ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعَراءِ ﴾ أي فألقاه اللّه من بطن الحوت إلى أرض خالية من الشجر على أحد السواحل ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ وهو عليل مريض بما ناله من الكرب والخوف ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ أي وأنبت اللّه قربه شجرة ليس لها ساق ولها ورق عريض لتظله وتقيه حر الشمس ، وكلمة « عليه » تدل على ذلك ، ويرجح أن تكون هذه نبتة القرع ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدونَ ﴾ أي وأرسل اللّه يونس بعد ذلك إلى قومه الذين هجرهم وكان عددهم زهاء مائة ألف أو زيادة على ذلك ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ آمنوا بعد أن رأوا أمارات العذاب الذي حذرهم منه يونس ، فمتعهم اللّه في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم . وقد روي أنهم لما رأوا أمارات العذاب خرجوا بالأطفال والبهائم وفرقوا بينها وبين الأمهات وناحوا إلى ربهم وضجوا بالبكاء وأخلصوا للّه ورجعوا عن الشر والظلم ، فرفع اللّه عنهم العذاب .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

شرح المفردات

إفكهم : كذبهم على اللّه .

أفلا تَذَكَّرونَ : أفلا تتعظون .

سُلْطانٌ مُبينٌ : حجة بينة واضحة .

الجِنَّة : الملائكة وقيل شياطين الجن .

بفَاتِنِينَ : بمضلين أحداً .

ذِكراً مِنَ الأوَّلين : كتاباً من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل .

المخلَصِين : أي من الذين أخلصهم اللّه لطاعته .

حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾
فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ
﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

شرح المفردات

فَتَوَلَّ عَنْهُم حَتَّى حِينٍ : فأعرض عنهم إلى مدة يسيرة .

بسَاحَتِهِم : بِفناء دارهم ، أي بهم .

رَبِّ العِزَّة : رب الغلبة والقدرة .

تابع سُورَة الصَّافات

وبعد الكلام عن يونس عليه السلام يعود بنا القرآن إلى الحديث عن كفار مكة وما هم عليه من معتقدات باطلة :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الملائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لكاذِبُونَ . أَصْطَفَى البنَاتِ عَلَى البنين . مَا لَكُم كَيْفَ تحكُمُونَ . أَفَلا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُم سُلْطَانٌ مُبِينٌ . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ (١٤٩ - ١٥٧) .

لما كانت قريش وبعض قبائل العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله وكانوا يعبدونها ، أمر اللَّه رسوله محمداً بمخاطبتهم : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُونَ ﴾ أي سل هؤلاء المشركين على جهة التوبيخ والتقريع : ألربي البنات ولكم البنون ، أي كيف ينسبون البنات إلى الله ويخصون أنفسهم بالذكور . وكان الشائع عندهم أنهم يرغبون في البنين

ويحبونهم ، بينما كانوا يكرهون البنات ويدفنونهن أحياء عند الولادة ، فهم بهذا يكونون فضلوا أنفسهم على اللَّه ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أي هل خلق اللَّه الملائكة من الإناث وهم يشاهدون خلقهم ، وهذا استهزاء بهم وتجهيل لهم ، فإن ادعاءهم بأن الملائكة بنات اللَّه لهو أمر لا يُعلم إلّا بالمشاهدة ، وهم لم يشهدوا خلقها ، فكيف يدّعون هذا الادعاء الغريب القائم على البهتان ﴿ أَلا إِنَّهُم مِنْ إِفكِهِمْ لَيَقُولُون وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي تنبه أيها السامع لحديثهم إنهم من كذبهم ليقولون وَلَدَ اللَّه - وهو المنزه عن الولد - وإنهم لكاذبون في حديثهم هذا ﴿ أَصْطَفَى[1] البَنَاتِ عَلَى البنينَ ﴾ استفهام على طريقة الإنكار والاستبعاد ، أي أنهم ما كفاهم أن قالوا وَلَدَ اللَّه حتى جعلوا ذلك الولد من جنس الإناث واختارهن على البنين ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تحكُمُونَ ﴾ ماذا أصاب عقولكم حين حكمتم بهذا الحكم الباطل ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تتدبرون ما تقولون فتعرفوا خطأه وتنتهوا عن قولكم هذا ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبينٌ ﴾ أم لكم حجة واضحة على مزاعمكم هذه ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ فأتوا بحجتكم من كتاب جاءكم من عند اللَّه إن كنتم صادقين أن لكم بذلك حجة تؤيد مزاعمكم .

ويتابع القرآن مناقشة المشركين في عقائدهم الباطلة :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّه الْمُخْلَصِينَ . فَإِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ (١٥٨ - ١٦٣) .

---

(١) أصطفى : أي اختار والأصل أأصطفى فحذفت همزة الفعل اكتفاءً بهمزة الاستفهام .

فاللّه سبحانه يستنكر أسطورة القرابة بين اللّه والجن التي ابتدعها المشركون بقوله : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً ﴾ ومن هم الجِنَّة، قيل هم الشياطين ، فالمشركون زعموا أن اللّه صاهر سروات الجن (أي أشرافهم) فخرج من نسلهم الملائكة ، وقالوا : إن اللّه وإبليس أخوان . وقيل المراد بالجنة : الملائكة ، قيل لهم جِنَّة لأنهم لا يُرون ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي وباللّه لقد علمت الجنة أن المشركين لمحضرون إلى النار ليعذبوا بها لكذبهم وافترائهم على زعمهم هذا[١] ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تعالى وتقدّس وتنزه اللّه عن أن يكون له ولد ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثنى اللّه عباده المخلصين الذين أخلصهم اللّه واختارهم لطاعته فإنهم لا يصفونه إلاّ بأرفع الصفات وينزهونه عن الولد ويبرئونه من كل عيب ونقص ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدون مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فإنكم أيها المشركون وما تعبدون من دون اللّه من أصنام وأوثان وملائكة ﴿ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ بفَاتِنِينَ ﴾ أي ما أنتم بمضلين أحداً من عباد اللّه ولا قادرين على إفساده ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ ﴾[٢] إلاّ من قدَّر اللّه أن يضل وعلم أنه يختار الكفر ويصير من أهل النار .

ثم تحكي لنا الآيات اعتراف الملائكة بعبادتها للّه وتنزيهه عن كل ما يصفه المشركون وفي هذا ردٌّ على من جعلهم بنات اللّه :

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٤ ـ ١٦٦) .

(١) وقد يكون الاستثناء من كلمة (لمحضرون) على معنى أن المخلصين غير محضرين للعذاب .

(٢) صال الجحيم : يدخلها ويقاسي حرها .

في هذه الآيات يجري كلام الملائكة مجرى التأكيد في العبادة لإبراز صدورها عنهم بكامل الرغبة والنشاط ولنفي من ادعى قرابتهم من اللّه فهم يقولون : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ في هذه الآية حذف والتقدير : وما منا من ملك إلاّ له مكان ومقام معلوم في عبادة اللّه ، وفي هذا يقول النبي ﷺ : « ما في سماء الدنيا موضع قدم إلاّ عليه ملك ساجد أو قائم » .

وتقول الملائكة أيضاً : ﴿ وَإِنَّا[١] لَنَحْنُ[٢] الصَّافُّونَ ﴾ أي وإننا نحن الملائكة نقوم صفوفاً في السماء لعبادة اللّه ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾ أي ونحن المصلون للّه المنزهون له عما نسب إليه المشركون من الولد والسوء .

ثم تعود بنا الآيات للكلام عن المشركين فتذكر ما كانوا يقولون بالمقارنة بينهم وبين أهل الكتاب :

﴿ لَو أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلين . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦٨ ـ ١٧٠) .

فالمشركون كانوا يقولون قبل أن يرسل اللّه إليهم رسوله محمداً لهدايتهم : ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي لو أن عندنا كتاباً أُنزل من السماء كالتوراة والإنجيل ، أو لو بُعِثَ إلينا نبي ببيان الشرائع لاتبعناه ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِين ﴾ أي لكنا عباد اللّه الذين أخلصهم لعبادته واختارهم لطاعته ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ هنا يوجد كلام محذوف ، أي لما جاءهم

(١) إنّا : مركب من « إن » حرف التأكيد و « نا » الضمير .

(٢) لنحن : اللام في نحن حرف تأكيد .

رسول من عند الله وأنزل عليه القرآن كفروا به ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذه الكلمة فيها تهديد ووعيد ، أي فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ومغبته الوخيمة .

وفي معرض الوعيد للكفار تأتي البشرى من الله لرسوله محمد ﷺ وللمؤمنين بالنصر على الأعداء بصورة التأكيد تثبيتاً للقلوب وتطميناً للنفوس :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهم لَهُمُ المنصورونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُون ﴾ (١٧١ - ١٧٣) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وبالله لقد سبق وعدنا وقضاؤنا لرسلنا الذين أرسلناهم لهداية قومهم ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾ والمراد بجند الله : هم الرسل وأتباعهم من المؤمنين ، فهؤلاء لهم الغلبة على أعداء الله .

ولقد تضافرت الآيات القرآنية على الوعد بنصرة رسل الله والمؤمنين ، كقول الله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّه لأَغلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلي ﴾ المجادلة : ٢١ ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ غافر : ٥١ .

هذه الآيات كلها نزلت بمكة حيث كان المسلمون قلة مستضعفة تقاسي أشد الاضطهاد والعذاب من دعاة الكفر ، فلم تمضِ سنوات قليلة حتى انتصر محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين على أعدائهم وعمَّ الإسلام جزيرة العرب وانتشر خارجها ، ولا ريب أن هذا الوعد الذي تحقق يعتبر من أهم الدلائل وأعظمها على كون القرآن وحياً إلٓهياً وعلى صدق نبوة محمد ﷺ .

وأمام وعد الله الحاسم بنصرة نبيه يخاطبه سبحانه بأن يترك هؤلاء المشركين لوعيد الله ويرتقب ما سيحل بهم من هلاك :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُم حَتَّى حِين . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُون . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ . وَتَوَلَّ عَنْهُم حَتَّى حِين . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧٤ - ١٧٩) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي اصبر على أذى المشركين وأعرض عنهم مدة يسيرة إلى حين مجيء عذاب الله ونزوله بهم ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ أي أبصر ما ينالهم من الأسر والقتل ، وجاء الفعل « أبصر » بصيغة الأمر للدلالة على أنه كائن واقع لا محالة ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي يبصرون عاقبة كفرهم وما يقضى لك يا محمد من النصرة وحسن العاقبة . ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ استفهام فيه تهديد ، أي أيستعجل قومك يا محمد نزول العذاب فيهم تحدياً واستهزاءً ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِم ﴾ الساحة : المكان الواسع وتطلق الساحة على فناء الدار . فالله سبحانه مثّل العذاب النازل بهم بجيش أطبق عليهم فجأة فحل بفناء دارهم فلم يأخذوا أهبتهم له ، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم من هذه المباغتة ، ففرق جمعهم وبدد شملهم ، إنه تصوير رائع يظهر بلاغة القرآن وعلو فصاحته ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ فبئس صباح الذين أُنذروا بالعذاب ، وتخصيص الصباح بالذكر لكثرة الغارات التي كانت تحصل فيهم في الصباح .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرونَ ﴾ كرّر الله هاتين الآيتين للتأكيد على النبي أن لا يبالي بهم وعلى أن النصر حليفه وعلى أن العذاب واقع بالمشركين ، وفي هذا تطييب لنفس النبي ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين وتثبيت لأقدامهم في مجال الدعوة إلى الإسلام ، فالله وعدهم

بالنصر والتأييد ولن يخلف اللّه وعده .

ثم تختتم هذه السورة بتقديس اللّه تعالى وحمده :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (١٨٠ - ١٨٢) .

سبحان ربك : أي تنزيه لربك يا محمد عن كل سوء وعن كل ما يصفه به المشركون من أن له صاحبة وولداً أو شريكاً ، وأضيف الرب إلى العزة ﴿ رَبِّ العِزَّةِ ﴾ لاختصاصه بها وأنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلّا وهو ربها ومالكها . وتأمل كيف أضاف اللّه رسوله محمداً إليه بقوله : ﴿ ربِّكَ ﴾ وعقّب على ذلك بقوله : ﴿ ربِّ العِزَّة ﴾ إشعاراً بأن اللّه سيعزه وينصره على أعدائه ، وسيكون رسوله معززاً مكرّماً لأنه مُرْسَلٌ من رب العزة ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى المرسَلين ﴾ هذا السلام تشريف لهم ولرسوله محمد وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون من كل المكاره وهم في أمان اللّه ﴿ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمين ﴾ الحمد : هو الثناء الجميل على الإحسان بقصد التعظيم فاللّه يستحق الحمد على نعمه التي لا تحصى ، وهو يستحق الحمد على إرسال رسله إلى الناس لينقذوهم من درب التعاسة والشقاء ، ويأخذوا بيدهم إلى درب السعادة في الدارين : دار الدنيا ، ودار الآخرة .

سُورَةُ ص

يصور اللّه في هذه السورة عناد المشركين وعجبهم لدعوة النبي ﷺ إلى وحدانية اللّه وترك عبادة الأصنام ، وحسدهم على إكرام اللّه تعالى للنبي ﷺ بالنبوة ونزول القرآن عليه . ثم يهدد اللّه المشركين بالعذاب والهلاك في الدنيا جزاء تكذيبهم لرسوله محمد ﷺ كما حصل للأمم السابقة .

وفي هذه السورة يطلب اللّه من رسوله محمد الصبر على أعباء النبوة ، ويقص عليه سِيَر الأنبياء قبله الذين ابتلاهم اللّه وامتحنهم بأنواع الضر والمكاره فصبروا وأنابوا إليه بالتوبة والطاعة فحازوا على رضوان اللّه لهم .

ثم يبين اللّه ما أعد للمؤمنين المتقين ربهم من نعيم في الجنة ، وما أعد للكافرين الطغاة من عذاب شديد في جهنم حيث هناك يتخاصمون هم وأتباعهم ويلوم بعضهم بعضاً على أفعالهم التي أودت بهم إلى هذا المصير السيّىء .

وفي هذه السورة بعض أنباء الغيب التي لا تعرف إلّا بالوحي الإلّهي وهي تخاصم الملائكة في شأن آدم ، ودعوة اللّه لإبليس بالسجود له وامتناع إبليس عن السجود له وطرده من الجنة .

ويختم اللّه السورة بتذكير الناس بأن القرآن هو عظة للناس جميعاً وأنهم سيعلمون صدق ما اشتمل عليه من وعد ووعيد وأخبار مستقبلية ستظهر بعد وقت قريب من نزوله .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾
كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾
وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ
﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ
مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا

شَـرح المفـردَات

ذي الذِّكْر : ذي الشرف ، وذي الموعظة .
عِزَّة : تكبر وامتناع عن قبول الحق .
شِقَاق : مخالفة وعداوة للَّه ورسوله .
قَرْن : أمة (أهل زمان واحد) .
فَنَادَوْا : فاستغاثوا باللَّه عند نزول العذاب بهم .
وَلَات حِينَ مَنَاصٍ : ليس الوقت وقت فرار وخلاص من العذاب .
مُنْذِرٌ مِنْهُم : نبي من جنسهم يخوفهم عذاب اللَّه .
عُجَابٌ : بالغ الغاية في العجب .
الملأُ مِنْهُم : أشراف قريش ووجوههم .
آمْشوا : امضوا على ما كنتم عليه .
لَشَيءٌ يُرَادُ : أي ما يريده محمد هو الانقياد له ليعلو علينا .

بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ
بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ
رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا
بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ
﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ
وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

شَـرح المفـردَات

الْمِلَّة الآخِرَةِ : دين النصارى أو دين قريش .
اخْتِلَاقٌ : كذب وافتراء .
الذِّكْرُ : هو القرآن .
مِنْ ذِكْري : من القرآن .
لَمَّا يَذُوقوا عَذَابِ : لم ينزل بهم عذاب اللَّه ولو ذاقوه لعلموا حقيقة ما هم به مكذبون .
فَلْيَرْتَقُوا في الأَسْبَابِ : فليصعدوا في المصاعد التي توصلهم إلى السماوات .
الأحزاب : الجماعات المجتمعة على معاصي اللَّه والكفر به .
فرعونُ ذو الأَوْتَادِ : ذو الجنود الكثيرة ، أو معذِّب الناس بالأوتاد .
أَصْحَابُ الأَيْكَةِ : الأيكة هي الشجر الكثيف الملتف . وأصحاب الأيكة قوم شعيب كانت مساكنهم كثيفة الأشجار .
فَحَقَّ عِقَابِ : فوجب عقاب اللَّه لهم .

سُورَةُ صٓ

إيضـاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة ببيان منزلة القرآن العاليـة مع التهـديد والـوعيد للكافرين :

﴿ صٓ وَالْقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في عِـزَّةٍ وَشِـقَـاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ فَنادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (١ ـ ٣) .

تبدأ هذه السورة بحرف « ص »[١] على عادة القرآن في بدء بعض السور بحروف الهجاء ، ثم أقسم اللّه بالقرآن ﴿ وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ الواو للقسم ، والقسم بالقرآن تنبيـه على شرف قـدره وعظيم مكـانته . ومعنى : ﴿ ذِي الـذِّكْرِ ﴾ أي صـاحب التذكـرة والمـوعـظة للنـاس والهـدايـة لهم . وقيل : ﴿ ذي الذِّكْر ﴾ أي ذي الشرف . فمن آمن بـالقرآن وعمـل به كـان شـرفاً لـه في الدارين ، كمـا قال تعـالى في وصف القرآن : ﴿ لَقَـدْ أَنْزَلْنَـا إِلَيْكم كِتَاباً فيه ذِكْرُكُم ﴾ أي فيه شرفكم .

﴿ بَلِ[٢] الَّذِين كَفَرُوا في عِزَّةٍ ﴾ بـل الذين كفـروا في تكبر وامتنـاع

(١) ص : حـرف من حروف الهجـاء ذكر هنـا على عادة القـرآن باستهـلال بعض السور بأحرف الهجاء وفي تفسير ذلـك عدة أقـوال ، منها : أنه إشارة إلى إعجـاز القرآن ، وأن القـرآن المعجز بـأسلوبه وهـديه هـو مُؤلَّف من هذه الأحـرف . ومـع هـذا عجـز العـرب وغيرهم عن الإتيان بمثله ، فعجزهم هذا دليل على أن القـرآن وحي إلّهي . وقيل : ص هـو اسم من أسماء القـرآن أقسم اللّه به . وقيـل هو قَسَم أقسم اللّه بـه وهـو من أسمـاء اللّه . وقيـل : ص ، بمعنى صدق اللّه . وقيـل : هو مفتـاح أسماء اللّه تعـالى صمـد ، وصانع المصنوعات وصادق الوعد ، وقيل : هو مما استأثر اللّه بعلمه .

(٢) بل : حرف استعمل هنا للإضراب أي ترك شيء من الكلام والانتقال إلى غيره .

عن قبـول الحق ﴿ وَشِقَـاقٍ ﴾ أي مخـالفـة ومعـاداة للّه ورسـولـه ﴿ كَمْ[١] أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كثيراً ما أهلكنا قبل الكفار من قـريش ﴿ مِنْ قَرْنٍ ﴾ من أمم سلكـوا سبيلهم في تكذيب رسـل اللّه ﴿ فَنَادوا ﴾ فـاستغاثـوا بـاللّه وتابوا إليـه حين نزل العـذاب بهم ، ولكن ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ لات : بمعنى ليس ، والمنـاص : المفـر والخـلاص ، أي ليس هذا بـوقت فـرار وخـلاص من عذاب اللّه ، فهؤلاء الكفـار من الأمم السالفـة تابـوا إلى اللّه حين عاينوا عذاب اللّه فلم تقبل تـوبتهم آنذاك ، لأنـه كان الـواجب عليهم أن يتوبوا عندما أمرتهم رسل اللّه بـالتوبـة قبل حلول العـذاب فيهم ، وكان حالهم كما قال الشاعر :

ندم البغاة ولات ساعة منـدم   والبغي مـرتـع مبتغيـه وخيم

ثم يبين القرآن تعجب الكافـرين من أن يكون محمـد هو رسـول اللّه إليهم وهو بشر مثلهم :

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَـذَا ساحِـرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَـلَ الآلِهَةَ إِلَهـاً وَاحِداً إِنَّ هَـذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ . وَٱنْـطَلَقَ المَـلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ يُرَادُ . مَـا سَمِعْنَا بِهَـذَا في المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ (٤ ـ ٧) .

لقـد تعجب الكفـار ﴿ أَنْ جَـاءَهُم مُنْـذِرٌ مِنهم ﴾ وهـو محمـد ﷺ يحذرهم ويخوفهم من عذاب اللّه ، ولم يأتهم ملك من السمـاء كما طلبـوا ذلك ﴿ وَقَالَ الكَافِرُونَ : هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وصف الكفار محمداً بالساحر والكذّاب ، فَوَصْفُهُم له بأنه ساحـر هو بسبب مـا كان يتلو عليهم من القـرآن الذي أفحمهم بفصاحته وبلاغته ومعانيه التي تتسم بالإعجاز فدخل كثير من

(١) كم : هي الخبرية الدالة على الكثرة وليست للاستفهام .

الناس في الإسلام بعد أن سمعوا القرآن وتأثروا به ، ولما كان الكافرون ينكرون أن القرآن وحي إلّهي ويدّعون بأنه من كلام محمد لذا وصفوه مرة بالساحر ومرة بالكذاب فهو في عرفهم مدّعٍ للنبوة وهذه مغالطة منهم ، فهم قد عاشروا محمداً قبل النبوة وكان مشهوراً بينهم بالصدق والأمانة حتى لقد لقبوه بالصادق الأمين . ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً ﴾[1] لقد قال كفار قريش : أجعل محمد المعبودات كلها إلّهاً واحداً يسمع دعاءنا جميعاً ويعلم عبادة كل واحد منا ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ إن هذا الأمر لشيء يتجاوز حد العجب ، وموضع العجب فيه أنه خلاف ما وجدوا عليه آباءهم من الدين ومن تعدد الآلهة . ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ الانطلاق هو الذهاب بسرعة ، والملأ هم طبقة الأشراف ، أي انطلق الأشراف من كفار قريش مسرعين من مجلس أبي طالب بعد أن أفحمهم النبي ﷺ بالجواب الحاسم والإصرار الجازم على الدعوة إلى وحدانية الله وترك عبادة الأصنام ، لقد انطلقوا وبعضهم يقول لبعض ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ أي سيروا على طريقتكم واثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ إن هذا الذي يدعونا إليه محمد من عبادة الله وحده هو شيء يريد به الشرف والترؤس علينا ، وأن نكون له أتباعاً . أو بمعنى : إن ما يدعونا إليه محمد هو أمر يريد تنفيذه وإمضاءه لا محالة لا يثنيه عن عزمه وساطة أحد

---

(١) روي في أسباب نزول هذه الآية : أنه لما مرض عم النبي أبو طالب دخل عليه رهط (أي جماعة) من قريش فيهم (أبو جهل) فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل . . . فلو بعثت إليه فنهيته . فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فقال له أبو طالب : أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم . . . فتكلم النبي ﷺ فقال : « يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجَمُ الجزية ، فقال : وما هي ؟ قال : لا إلّه إلاّ اللّه . فقام هؤلاء الجماعة من كفار قريش وهم يقولون : « أجعل الآلهة إلّهاً واحداً . إن هذا لشيء عجاب » .

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ الملة : هي الدين ، حقاً كان أو باطلاً . والمعنى الذي قصده المشركون : ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد في دين النصارى لأنها آخر الملل ، وقد يراد بالملة الآخرة : ملة قريش وما كان عليه آباؤهم من الدين وعبادة الأصنام ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ إن : حرف نفي بمعنى : ما ، أي ما جاء به محمد من الدعوة إلى وحدانية الله ما هو إلاّ كذب وافتراء .

ثم يبين القرآن السبب الذي يحتج به المشركون لرفض ما جاء به محمد من الهدى :

﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾(٨) .

فاللّه سبحانه يقول مخبراً عما يقوله هؤلاء المشركون : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ الاستفهام هنا للإنكار ، والذكر : معناه هنا القرآن . فهم أنكروا أن يخص اللّه محمداً بالنبوة من بين أشرافهم ، وينزل عليه القرآن ، وفيهم من هو أعظم جاهاً وأكثر ثراءً ، ولكنهم غفلوا عن أن اللّه يتفضل بوحيه على من يختاره من عباده ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ بل هم في ريب من أن القرآن وحي إلّهي ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ لما : بمعنى لم ، أي بل لم يذوقوا عذاب اللّه الموعود في القرآن ولذلك شكوا فيه ، فإذا ذاقوا العذاب زال الشك وسارعوا إلى الإيمان ولكنه لا يقبل منهم حينئذٍ .

وبعد شك الكفار برسالة محمد وأن هناك من هو أجدر منه ، تتساءل الآيات التالية على سبيل الاستهزاء بهم بأي حق يعترضون ومن أي موقع يتكلمون :

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ . جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ (٩ - ١١) .

فالله سبحانه يقول : بل نسأل هؤلاء المشركين الحاسدين لك يا محمد أعندهم مفاتيح خزائن رحمة ربك فيتصرفون فيها حسبما يشاءون ؟ لا ، فهذا الأمر ليس لهم ، فالنبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده . وإضافة اسم الرب إلى النبي ﷺ ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ للتشريف والعطف ، لأن الله سبحانه هو المربي والمكمل للشيء والحافظ ، فهذه الإضافة تشعر النبي ﷺ بأنه في كنف ربه وحمايته وحفظه ، وأن ربه هو ﴿ العزيز الوهاب ﴾ أي القوي الغالب ، الواهب لمن يشاء النبوة والملك .

﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي بل نسأل هؤلاء المشركين : ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يكون لهم حق الاعتراض والتدخل في الأمور الربانية التي يستأثر بها رب العالمين ، لا ليس لهم ملك في ذلك ليعترضوا على إعطاء الله سبحانه النبوة لمن يشاء ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أي إن كان لهم ما ذكر من المُلك فليصعدوا في أبواب السماء وطرقها التي توصلهم إلى السماء وإلى العرش ليحكموا بما يريدون ، ويدبروا أمر العالم وملكوت الله ، ويخصوا بالنبوة من يختارون من عباد الله ، والأمر هنا على سبيل التوبيخ والتهكم بهم .

﴿ جُنْدٌ ما[1] هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ إنهم جند حقير كغيرهم من الكفار الذين تحزبوا وتجمعوا على الرسل بالتكذيب ، هؤلاء سينهزمون

(١) ما : مزيدة وفيها معنى التقليل والتحقير .

فلا تبالِ يا محمد بما يقولون ولا تكترث بهم ، وهذا وعد من الله سبحانه لنبيه محمد بالنصر على الكفار . وقد تحقق وعد الله بعد سنوات قليلة من نزول هذه الآية فتوالت الهزائم على الكفار ، ودانت جزيرة العرب لرسول الله . وهذا من الأنباء الغيبية التي تحققت والتي تشهد بأن القرآن كلام الله حقاً إذ لا يعلم الغيب إلا الله .

ثم يعرض القرآن أسماء بعض الأمم التي كذبت رسل الله فحل بها عذاب الله :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ . إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ (١٢ - ١٤) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي كذب رسل الله قبل هؤلاء المشركين من قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهم الذين أهلكهم الله بالطوفان ﴿ وَعَادٌ ﴾ عاد : من قبائل العرب البائدة التي كذبت رسول الله هوداً فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذو الْأَوْتَادِ ﴾ وهو الذي كذب رسول الله موسى فأهلكه الله مع جنوده غرقاً في البحر . والأوتاد : فسرت بالأهرام فإنها خاصة بفراعنة مصر ، وإنما جاز تسميتها أوتاداً تشبيهاً لها بالجبال في الرسوخ والارتفاع . وقيل : الأوتاد كناية عن كثرة جنود فرعون فقد كانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام التي كانوا ينصبونها . وقيل : كان فرعون يعذب الناس ويسمرهم في الأرض بالأوتاد . ﴿ وثمود ﴾ وهم قوم من العرب البائدة كذبوا رسول الله إليهم « صالحاً » فأهلكهم الله بصاعقة من السماء . ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ وقد كذبوا رسول الله إليهم لوطاً فأهلكهم الله جزاء فسقهم وعصيانهم بأن قلب قريتهم عليهم ،

وجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل زيادة في إهلاكهم .
﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ والأيكة : غيضة من شجر ملتف وكان فيها قوم يتلاعبون بالمكاييل والأوزان فأرسل اللَّه إليهم رسوله « شعيباً » فكذبوه فأهلكهم اللَّه بعذاب يوم الظلة ، إذ أصابهم حر شديد فأرسل عليهم سحابة فاستبشروا بها واستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم ﴿ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرناهم سابقاً هم الذين تحزبوا وتجمعوا على معاصي اللَّه ، والكفر به ، وتكذيب رسله . ﴿ إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ إن : نافية بمعنى ما ، أي ما كل حزب من هذه الأحزاب إلاّ كذب الرسول الذي أرسله اللَّه إليهم ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فثبتت ووجب عليه عقاب اللَّه لهم .

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا

شرح المفردات

وما ينظر : بمعنى ينتظر .
مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ : ليس لها من ترداد .
عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا : عجل لنا حظنا أو نصيبنا من العذاب أو النعيم .
ذَا الأَيْد : ذا القوة في طاعة اللَّه والعبادة .
أَوَّابٌ : رجّاع إلى اللَّه بالتوبة مطيع للَّه كثير الصلاة .
سَخَّرْنَا : ذللنا .
العَشِيِّ : ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها .
الإِشْرَاقِ : أي حين تضيء الشمس ويصفو شعاعها بعد إشراقها .
والطَّيْرَ مَحْشُورَةً : مجموعة له تسبح اللَّه معه .
كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ : كل له مطيع مسبح اللَّه .
شَدَدْنَا مُلْكَهُ : قوينا ملكه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود .
فَصْلَ الخِطَاب : علم القضاء وتمييز الحق من الباطل .
نَبَأُ الخَصْمِ : خبر تحاكم الخصمين .
تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ : تسلقوا حائط غرفته ونزلوا إليه .
بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ : تعدى أحدنا على صاحبه بغير حق .

عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا
وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ
إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

وَلَا تُشْطِطْ : ولا تظلم وتتجاوز الحق .

وآهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاط : وأرشدنا إلى طريق الحق .

أكْفِلْنِيها : ملكنيها وانزل لي عنها .

عَزَّني في الخِطَاب : غلبني وقهرني في القول والحجة .

الْخُلَطَاءِ : الشركاء .

لَيَبْغِي : ليظلم ويتعدى .

فَتَنَّاهُ : ابتليناه وامتحناه .

خَرَّ راكعاً : سجد .

وأَنَابَ : رجع إلى اللّه بالتوبة .

لزُلْفَى : لقربة ومكانة .

حُسْن مآب : حسن مرجع في الآخرة وهو الجنة .

سبيل اللّه : دين اللّه وطريقه .

تابع سورة صٓ

ثم يأتي الكلام عن المشركين العرب بقالب التهديد بعد ذكر ما حل بالمكذبين قبلهم من العقاب :

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ . وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (١٥ ـ ١٦) .

ينظر : بمعنى ينتظر ، والصيحة هنا بمعنى العذاب ، أي ما ينتظر هؤلاء المشركون إلّا عذاباً يهلكهم ﴿ مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ ليس لهم بعد هذا الهلاك إفاقة ولا رجوع إلى الدنيا .

وقد يراد بالصيحة نفخة الملك إسرافيل في البوق النفخة الأولى يوم القيامة وهي التي يطلق عليها نفخة الفزع ، وهذه الصيحة ﴿ ما لها من فواق ﴾ أي ما لها من رجوع ولا ارتداد ، فكأن في ذلك إشعاراً لكفار قريش بأنهم إذا لم يذوقوا عذاب اللّه في الدنيا فهناك عذاب يوم القيامة .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا ﴾ أي قال المشركون : ربنا عجل لنا حظنا ونصيبنا من العذاب ، أو نصيبنا من نعيم الجنة في الدنيا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي ولا تؤخره إلى يوم القيامة ، قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف والاستهزاء .

وبعد الكلام عن استهزاء المشركين بيوم الحساب أمر اللّه رسوله محمداً بالصبر على أذاهم وطيّب نفسه بذكر ما حصل للأنبياء قبله من المشاقّ والمحن فصبروا حتى فرّج اللّه عنهم مبتدئاً بقصة داود :

﴿ آصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَآذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ . وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ (١٧ ـ ٢٠) .

فاللّٰه سبحانه يقول : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أي اصبر يا محمد على ما يقوله المشركون فإنا ممتحنوك بالمكاره امتحاننا سائر رسلنا من قبلك ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ وتذكر قصة عبدنا داود[١] ـ أي النبي داود ـ وَوَصْفُ داود بالعبودية وإضافته إلى اللّٰه إظهار لشرفه ، وإشعار بأنه حقق معنى العبودية للّٰه بسبب اجتهاده في طاعة اللّٰه ، فقد كان ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾ أي ذا القوة في طاعة اللّٰه ، والقوة في العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أواب على صيغة فعّال تدل على المبالغة في الشيء أي أنه كثير الرجوع إلى اللّٰه بالتوبة والطاعة وفي جميع أموره وشؤونه ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ ﴾ أي إننا ذللنا الجبال مع داود وذلك يتمثل بطريق الاقتداء به في عبادة اللّٰه ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ وتسبيح الجبال مع داود بمعنى يقدسن اللّٰه سبحانه وينزهنه عما لا يليق به ، فداود إذا ذكر اللّٰه وقدّسه ذكرت الجبال معه ذلك إما بصوت يتمثل له أو بلسان الحال ، وكان يفقه تسبيح الجبال[٢] . والمراد بالعشي وقت غروب الشمس ، أما الإشراق فهو بعد أن تشرق الشمس بقليل حيث تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى .

وتخصيص هذين الوقتين بالذكر يدل على اختصاصهما بمزيد شرف فيصلح التخصيص لأن يكون سبباً للحرص على تسبيح اللّٰه في هذين الوقتين فإن للأزمنة والأمكنة أثراً في استشعار عظمة اللّٰه وتقديسه ، فعند

---

(١) أخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء قال : كان النبي ﷺ إذا ذكر داود وحدّث عنه قال : كان أعبد البشر . وجاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : أحب الصلاة إلى اللّٰه صلاة داود وأحب الصيام إلى اللّٰه صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر (أي من العدو) إذا لاقى وإنه كان أواباً » .

(٢) أثبت القرآن أن الكون كله يسبح اللّٰه ولكن لا نفقه تسبيحه : ﴿ وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

مغيب الشمس وغشيان الليل تصفو النفوس وترنو إلى التأمل في الطبيعة وقد غمرها السكون ، وتراءت النجوم في سمائها متلألئة مشعة مما يطلق النفس من قيودها التي سببتها ضجة العمل وزحمة العيش ، ويجعلها تهفو إلى خالقها مسبحة بحمده ، ممجدة لعظمته . وكذلك وقت شروق الشمس حيث تظهر الطبيعة في أجلى مظاهرها وقد اغرورقت بالندى ، وتحرك كل ما فيها من إنسان وطير وحيوان ، كل ذلك يثير الإحساس الروحي في قلب الإنسان ويدعوه إلى تمجيد خالقه .

ويتابع القرآن ذكر ما خصَّ اللّٰه به داود ﴿ والطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي وذلّل اللّٰه لداود الطير مجموعة إليه تسبح اللّٰه معه وتقدس اللّٰه بتقديسه ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي كل من الجبال والطير مطيع لداود بالتسبيح للّٰه وبالترجيع لتسبيحه هذا على إسناد الضمير لداود ، أما إذا أسندنا الضمير للّٰه تعالى فيكون المعنى : كل من داود والجبال والطير مطيع للّٰه تعالى مقدس له . ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي قوّاه اللّٰه بكثرة الجنود والنصرة على الأعداء والتأييد له ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي وأعطاه اللّٰه النبوة والفهم وكمال العلم الذي يصحبه حسن التصرف في الأمور ﴿ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ الفصل : الحاجز بين الشيئين ، والخطاب : الكلام ، وفصل الخطاب هو الكلام الفاصل بين الصحيح والفاسد والحق والباطل ، وهو علم القضاء والعدل وتدابير الملك والمشورات .

ثم يبين لنا القرآن خبر الخصمين اللذين تخاصما إلى داود :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً

وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ (٢١ ـ ٢٣) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ[١]﴾ أي وهل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين ؟ هذا الاستفهام لإثارة العجب وتشويق السامع إلى ما يلقى عليه من الكلام ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إذ تسلقوا سور غرفته التي كان يتعبد فيها ونزلوا من أعلى السور إليه ، والسور : الحائط المرتفع ، والمحراب : صدْر البيت وأكرم موضع فيه ، وأرفع مكان في المسجد ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ وإنما فزع داود لأنهم دخلوا عليه من غير الباب وبدون إذنه ، وفي وقت خصصه للعبادة لا في الوقت المخصص للفصل بين الناس في منازعاتهم على الرغم من الأوامر للحرس بعدم السماح بدخول أحد عليه .

وقد روي أن داود جَزَّأ وقته أربعة أجزاء فجعل يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً لجميع بني إسرائيل يعظهم فيه ، فجاءه هذان الخصمان في الوقت المخصص لغير القضاء ففزع منهما .

ويروى أن هذين الخصمين كانا من الملائكة وظهرا في صورة إنسانين ، وعندما شاهدوه قد فزع طمأنوه بقولهم : ﴿ قَالُوا : لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ وخصمان خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره : نحن خصمان ، ثم طلبا منه ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل ولا تتجاوزه في الحكم ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ وأرشدنا إلى طريق الحق الذي لا ميل فيه لا إلى هذه الجهة ولا إلى الجهة

(١) الخصم : يطلق على الواحد وعلى الجمع ، والمخاصمة : المنازعة ، قيل الخصم هنا اثنان وتجوز في العبارة فأخبر عنهما إخبار ما زاد على اثنين .

المقابلة ، أي إلى القضاء العادل ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي قال أحد الخصمين وأشار إلى خصمه : إن هذا أخي في الدين أو في الصحبة يملك تسعاً وتسعين نعجة وأنا أملك نعجة واحدة ، والنعجة هي الأنثى من الضأن ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي انزل لي عنها ، وضمّها إليَّ ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ وغلبني وقهرني في الكلام وكان أقوى مني حجة فضم نعجتي إلى نعاجه .

ثم يذكر لنا القرآن الحكم الذي حكم به داود بين هذين الخصمين ، والموعظة التي وعظهما بها :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ . فغفرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٢٤ ـ ٢٥) .

فداود قال للخصم المتظلم من صاحبه : لقد ظلمك صاحبك بسؤاله طلب ضمِّ نعجتك إلى نعاجه . ويظهر أن في زمان داود كان يكثر فيه الظلم والاعتداء على حقوق الغير لذلك وعظهما بقوله : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ أي وإن كثيراً من الشركاء الذين خلطوا أموالهم بينهم ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ليتعدى ويأخذ بعضهم من نصيب شريكه بغير حق ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فهؤلاء الذين آمنوا باللّه وعملوا بطاعة اللّه لا يظلمون أحداً ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ أي قليل هم ، و« ما » مزيدة للتعجب من قلتهم[١] .

(١) سمع عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه رجلاً يقول في دعائه : اللهم اجعلني من عبادك القليل فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال أردت قول اللّه تعالى : ﴿ إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر .

وهنا تنبه داود إلى أن اللّه اختبره بهذه الحادثة التي حكم فيها بين الخصمين ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ﴾ وأن المراد التعريض به ولفت نظره إلى خطأ وقع فيه ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ أي طلب الغفران من ربه لما بدر منه من ذنب أو خطأ ، وسجد للّه خضوعاً له ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ورجع إلى اللّه بالتوبة ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي فعفا اللّه عن ذلك الذنب الذي استغفر منه داود وصفح عنه ولم يؤاخذه بذنبه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ وإن له عند اللّه لقربة وكرامة يوم القيامة ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وحسن مصير ومرجع في الآخرة وهو الجنة .

ما هي فتنة داود ؟

قيل إن الفتنة المقصودة هي أن داود حجب نفسه عن الناس ، والواجب على القاضي أن يعد نفسه للقضاء دائماً ولا يضع بينه وبين المتخاصمين حجاباً ، مما أدى بالمتخاصمين إلى تسوّر المحراب والدخول على داود . وقيل هي قضاؤه بين الخصمين بعد أن سمع حجة أحدهما وقبل أن يسمع حجة الآخر . وقيل : إن الفتنة كانت في استشعار داود الملك والسلطان فرأى في ذلك فتنة واختباراً من اللّه فخاف من الوقوع في الظلم شأن كثير من الحكام .

أما تصوير الفتنة كما جاء في التوراة[١] وتأثر بها بعض المفسرين[٢]

---

(١) راجع الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الثاني من العهد القديم .

(٢) بعض المفسرين يذكر هذه القصة بما لا يقدح بشرف النبوة فيقول : إن عين داود وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأل زوجها النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل ، هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة إلّا أنه لا يليق بالأنبياء . وقال آخرون : إن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه مع كثرة نسائه .

وخلاصتها أن داود عشق امرأة قائده « أوريا الحثي » وزنى بها ثم تسبب بقتل زوجها ، فهذه الأمور نضرب عنها صفحاً ونستهجنها أشد الاستهجان إذ فيها تهديم لأسس الحق والدين وجعل الكتب المقدسة أداة عبث وضلال واتخاذ الأنبياء قدوة سوء .

فما ورد في القرآن الكريم من صفات داود ينفي جملة وتفصيلاً ما ورد في التوراة من افتراءات باطلة ، فقد وصف اللّه دَاوُد ـ كما ذكرنا من قبل ـ بالعبودية للّه والقوة في الدين وأنه رَجّاع إلى اللّه بالتوبة كثير التسبيح له ، وأن اللّه آتاه الحكمة وإصابة العدل في الحكم ، وأنه مقرب إليه ، فهذه الصفات كلها تتنافى مع إقدامه على المعصية وتجعل داود مترفعاً عن الفواحش والمنكرات بعيداً عن كل ما يخل بالمروءة .

فالرسل في نظر الإسلام معصومون عن الخطايا والآثام ، إذ لو جوّزنا عليهم شيئاً من الآثام لبطلت شرائع اللّه ، ولم نعد نثق بشيء مما يذكرونه ، لذلك فإن ما جاء في التوراة بحق داود يعتبر غضاً من منصب النبوة وهو من التحريفات التي ألحقت بالتوراة .

وبعد ذكر قصة الحكم بين الخصمين دعا اللّه داود إلى الحكم بين الناس بالحق :

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (٢٦) .

فاللّه سبحانه جعل داود خليفة في الأرض وهذا يدل على مكانته عليه السلام عند اللّه واصطفائه له ، ويدفع كل الترهات والأكاذيب التي نسبت إليه . ومعنى : خليفة في الأرض ، أي إن اللّه ولاه الملك والحكم فيما

بين الناس ، أو جعله خليفة يخلف من كان قبله من الأنبياء القائمين بالحق ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل الذي هو حكم اللّه بين عباده ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي لا تتبع يا داود ما يميل إليه طبعك ويدعو إليه هواك إذا كان مخالفاً ذلك للحق ، فإنك إذا اتبعت ذلك مال بك الهوى عن سبيل الحق الذي هو سبيل اللّه .

هذه دعوة لداود وهي في الوقت نفسه دعوة لجميع الحكام للسير على هذا الهدي الإلّهي .

نعم إن الذي يصرف الحاكم عن سبيل اللّه هو هوى النفس الذي يتمثل بالمظاهر الآتية : حب الانتقام من الخصم ، ومحاباة الأشراف والأقرباء والأصدقاء ، والجور على الضعفاء والأعداء ، وإرضاء نزوات النفس من حب الاستعلاء والشهرة ، وهذه الأمور أظهر ما تكون عند بعض الحكام .

ويتابع اللّه قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي إن الذين يعدلون عن العمل بما أمرهم اللّه به ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أي إن سبب الضلال المفضي إلى العذاب الشديد يوم القيامة هو نسيان يوم الحساب ، لأن الإنسان لو كان متذكراً لهذا اليوم لما أعرض عن إعداد الزاد له ، ولما صار مستغرقاً في شهوات الدنيا ولذاتها المحرمة .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ

شرح المفردات

الفُجّار : جمع فاجر وهو المنغمس في المعاصي .

مُبارَكٌ : كثير خيره ونفعه .

لِيَدَّبَّروا آياته : ليتفكروا في آياته .

وَلِيَتَذَكَّر : وليتعظ .

أولو الألبَاب : أصحاب العقول .

بالعَشِيِّ : ما بعد زوال الشمس إلى الغروب .

الصَّافِنَاتُ : الخيل الواقفة على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة .

الْجِيَادُ : الخيل السريعة العدو .

أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ : آثرت حب الخيل .

عَنْ ذِكْرِ رَبِّي : أي أحب الخيل لأمر اللّه وتقوية دينه .

تَوارَتْ بِالْحِجَاب : توارت الخيل عن الأنظار .

فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ : فشرع يمسح سيقانها وأعناقها تشريفاً لها .

فَتَنَّا سُلَيمَانَ : ابتليناه وامتحناه .

كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى
لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ
رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ
عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ
ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ
أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

شرح المفردات

لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدي : لا يكون لأحد من بعدي .

فَسَخَّرْنَا : فذللنا .

رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ : لينة الهبوب طيعة له حيث أراد .

كُلَّ بَنَّاءٍ : يبنون له ما يشاء من المباني .

وَغَوَّاصٍ : يغوصون في البحر فيستخرجون له اللآلىء .

وَآخرِينَ مُقَرَّنِينَ بالأَصْفَادِ : وآخرين مكبلين بالسلاسل وهم مردة الجن .

فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ : أحسن إلى من شئت وامنع من شئت .

نُصْب : الداء والبلاء وما يوجب التعب .

هَذَا مُغْتَسَلٌ : هذا ماء تغتسل فيه يكون فيه شفاؤك .

ضِغْثاً : قبضة من قضبان مختلفة .

ولا تَحْنَث : ولا تأثم في يمينك وقسمك بل تتحلل منه .

تابع سورة ص

ثم يبين القرآن بأن يوم الحساب آتٍ لا ريب فيه ، وأنه سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً بدون غاية ولا حكمة :

﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾ (٢٧) .

أي ما خلق اللّه السماء والأرض وما بينهما من موجودات باطلاً ومجرداً خلقها من الحكمة ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ذلك ما يظنه الكافرون بأن الكون لم يخلق لغرض ولا لحكمة ، وأنه لا ثواب ولا عقاب بعد الممات ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كفروا مِنَ النَّارِ ﴾ فويل للكافرين من النار المعدة لهم يوم القيامة جزاء عصيانهم لربهم ، وظنهم الفاسد بأنه لا ثواب ولا عقاب بعد الممات .

فخلق السماء والأرض قام على الحق ، وخلق الإنسان قام على الحق كذلك ، ومن الحق أن يكافأ المحسن على إحسانه ، وأن يعاقب المسيء على إساءته إن لم يكن في هذه الحياة الدنيا ففي حياة أخرى ، فإنا نرى كثيراً من الظالمين المفسدين في الأرض يرتعون في بحبوحة من العيش وألوان من الترف على حساب البائسين المظلومين المتقين للّه ، فلو كانت الدنيا نهاية المطاف لكان هناك شك في العدالة الإلّهية .

فاللّه لم يخلق الخلق عبثاً مجرداً عن الحكمة ، ومن الحكمة التي أخبرنا اللّه بها أن هناك حياة بعد الموت في دار أخرى يُدان الناس فيها بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا ما ذكره القرآن في الآية التالية رداً على الذين ظنوا بأنه لا ثواب ولا عقاب :

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢٨) .

أم : الهمزة استفهام للإنكار ، فاللَّه ينكر من يسوي في حسن العاقبة بين فئتين من الناس فيقول بما معناه : أيليق بحكمتنا وعدلنا أن نسوي بين المؤمنين الذين يعملون الصالح من الأعمال وبين المفسدين في الأرض ، أم يليق أن نسوي بين المتقين الذين اجتنبوا ما حرّم اللَّه وبين الفجار المنغمسين في المعاصي ؟ لا ، فكل من الفريقين له منزلته ومقامه في الآخرة .

فالذين آمنوا باللَّه وعملوا الصالحات لهم عز الدنيا وسعادتها كما أن لهم نعيم الآخرة ، فالإيمان باللَّه وحده يصلح النفوس ويحقق الخير للمجتمع ، ذلك أن الاعتقاد بإله واحد يثيب الناس على أعمالهم يجعلهم في رقابة ذاتية على أعمالهم ، يعملون الصالحات ابتغاء وجه اللَّه وابتغاء ثوابه في الآخرة ، فينشأ من ذلك مجتمع فاضل يفيض بالخير وينعم بالسعادة ، أما المجتمع الذي يُعرض أفراده عن الإيمان باللَّه والعمل الصالح ، ويطلقون لشهواتهم العنان ويسعون في الأرض فساداً فهو مجتمع هالك مضمحل لا محالة، بسبب تصدع بنيته ويكون مصير أبنائه يوم القيامة عذاب النار .

ثم يبين اللَّه بعد ذلك الحكمة المتوخاة من نزول القرآن :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢٩) .

فالقرآن كتاب منزل من عند اللَّه على رسوله محمد ﷺ ليعلمه قومه، وهذا الكتاب ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أي كثير المنافع الدينية والدنيوية . وهذا القرآن

الغاية منه ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أي ليتفكروا في آياته وما تحتويه من المعاني الفائقة ليهتدوا بها ويتبعوا ما فيها من أوامر ونواهٍ ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ وليتعظ بالقرآن ذوو العقول السليمة .

هذه الآية حجة ضد الذين جعلوا القرآن فقط للتبرك وتلاوته على الأموات ، فالقرآن أنزله اللَّه دستوراً للمسلمين ينظم علاقاتهم فيما بينهم ثم علاقاتهم مع الآخرين ويعرّفهم كيف ينبغي أن تكون صلتهم بربهم . ولقد وصف اللَّه القرآن ﴿ هُدى للمتقين ﴾ ووصفه اللَّه بأنه ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ شفاء : لأنه يعالج الانحرافات والفساد في المجتمع . ورحمة لأنه جاء بكل التشريعات والآداب التي تسعد الناس في دنياهم وآخرتهم ، كما وصف اللَّه القرآن بأنه أنزل لإنذار الأحياء لا الأموات ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ .

وإن في قوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ دعوة صريحة لتدارسه وفهم معانيه بالرجوع إلى التفاسير[1] لا لتعلم قراءته وأحكام تجويده فقط كما يفعل الآن كثير من المسلمين ، فعلم قراءته وتجويده مطلوبة ، ولكن يجب أن تقترن بالتفكر والتدبر في معانيه لا لمجرد التلاوة بدون تدبر .

---

(١) إن فهم القرآن فهماً حقيقياً يعجز عنه الكثيرون حتى المتخصصين في اللغة العربية بدون الرجوع إلى التفاسير وإن كان ذلك يساعدهم على فهمه أكثر من غيرهم من العامة لأن القرآن كتاب عربي أنزل بلغة العرب ، وفهمه يحتاج إلى معرفة أسباب نزول الآيات لأن القرآن نزل مفرقاً حسب الوقائع والحوادث ، كما يحتاج فهمه الى علم الحديث النبوي الذي كشف عن بعض معاني الآيات وأحكامها وأسرارها ، وتتبع ما قاله الصحابة والتابعون في تفسير كثير من الآيات التي يصعب إدراك معانيها . مع الرجوع إلى السيرة النبوية المتضمنة لكثير من أسباب نزول الآيات . وكذلك الإلمام بتاريخ العرب قبل الإسلام وما كانوا عليه من معتقدات وعادات ، والإلمام بعقائد الملل والنحل قبل الإسلام .

وإن في قوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ حجة ضد الذين يجعلون القرآن يتلى بواسطة مكبرات الصوت سواء في المآذن أو الطرقات فهذا ينافي أدب قراءة القرآن لأن الإنسان وهو في زحمة العمل والانشغال بهمومه المعيشية لا يلتفت إلى معاني القرآن ولا التفكر في آياته ولا الاستماع له ، فضلاً عما في ذلك من قلة الاحترام والخشوع الواجب توفرهما في المستمع إلى آيات اللّه وقد جاء في القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرآن فاستَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الأعراف : ٢٠٤ هذا مع العلم أن قراءة القرآن بواسطة المكبرات الصوتية لا تصل واضحة جليّة إلى الآذان ، وبالأخص إذا كان الإنسان بعيداً عن مصدر الصوت ، فلا يسمع حينئذٍ إلاّ ضجيجاً لا يميز به ما يتلى من القرآن ، فضلاً عن أن هذا الضجيج يضيع على طلبة العلم تحصيل علمهم ، ويفوت على المريض أن يأخذ حظه من الراحة .

وإن في قوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ حجة ضد الذين يسرفون في تنغيم القرآن والتكلف في ذلك مما يجعله أداة طرب لا أداة تفكر واعتبار بأحكامه ومواعظه .

وبعد بيان الحكمة من نزول القرآن تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن النبي سليمان عليه السلام :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (٣٠ - ٣٣) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ أي وهب اللّه لداود ابناً ، والمراد بالهبة هنا النبوة لأنه كان له بنون غيره ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ

أَوَّابٌ ﴾ ثناءً على سليمان بأنه كثير الرجوع إلى اللّه بالطاعة والتوبة والعبادة[1] ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ ﴾ أي اذكر من أخبار سليمان أنه عُرض على مرأى نظره بعد الظهر الخيل الأصيلة الشديدة العدو ، والصافنات من الجياد هي التي تقوم على ثلاث وتثني سنبك الرابعة وهي من علامات الأصالة في الخيل ، والجياد : هي الخيل السريعة الجري ﴿ فَقَالَ إِنّي أَحْبَبْتُ حُب الْخَيْرِ ﴾ أراد بالخير هنا الخيل ، والعرب تسمي الخيل خيراً ، كما كان العرب يسمون المال خيراً أيضاً ، والمعنى : أحببت الخيل حبّاً ﴿ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أي هذه المحبة إنما حصلت عن ذكر اللّه وأمره ولإعلاء شأن دينه باعتبار أنها للجهاد في سبيله ، فقد كانت الخيل في تلك الأزمان عدة القتال الأولى في الحروب . فسليمان أحبها لهذه الأمور ، وهذا درس للمؤمن بأن يكون حبه للّه ، فإذا أحب شيئاً في هذه الحياة فلأنه يعينه على ذكر اللّه وشكره وإذا كره شيئاً فلأنه يصرفه عن سبيل ربه .

ثم انطلقت الخيل تتسابق ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ أي حتى غابت عن الأنظار . وأمر سليمان السائسين لهذه الخيل أن يردوها عليه : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ وبعد أن ردوها عليه ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ فجعل يمسح سيقانها وأعناقها بيده ترفقاً بها واستحساناً لها ، وليظهر أنه في ضبط السياسة والملك بحيث يباشر أكثر الأمور بنفسه ، بالإضافة إلى ذلك أنه كان عالماً بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ليعلم إن كان

---

(١) هذا الثناء ينطبق على كل مؤمن كثير الرجوع إلى الله لأن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف معرفة اللّه تعالى والاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلاّ بإعانة اللّه تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى اللّه فكان أوّاباً ، ومن كان أواباً إلى اللّه استحق لقب (نعم العبد) .

فيها ما يدل على أمارات المرض .

ويتابع القرآن فيشير إلى أن اللّه ابتلى سليمان ببعض الأمور امتحاناً له :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٣٤) .

فتنّا سليمان : أي ابتليناه واختبرناه ، وقد روى المفسرون في حقيقة هذه الفتنة بعض التفسيرات المنقولة عن الاسرائيليات التي لا صحة لها ، وهذه الفتنة يحوطها الغموض وأقرب التفسيرات لذلك ما روي عن النبي ﷺ : «قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل اللّه ، فقال له صاحبه : قل إن شاء اللّه ، فلم يقل إن شاء اللّه ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلّا امرأة واحدة جاءت بشق رجل[1] ، وآيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيله ، فرساناً أجمعون »[2] .

فالمراد بالجسد الذي ألقي على كرسيه هو جسد المولود الذي ألقته القابلة على كرسيه حين عرضته عليه ليراه .

وهناك تفسير آخر وهو أن اللّه امتحنه بمرض شديد أصابه حتى صار إذا جلس على كرسيه ظهر وكأنه جسد بلا روح ، والعرب تقول في الضعيف : إنه لحم على وضم[3] وجسم بلا روح ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى حال الصحة .

---

(١) شق رجل : أي غير كامل البنية .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) الوضم : كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير يوقى به من الأرض .

ويتابع القرآن الكلام عن سليمان فيذكر ما خصه اللّه به من معجزات :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٣٥ ـ ٤٠) .

فسليمان دعا ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ أي طلب من ربه أن يغفر له ما لم يستحسن منه من صغائر الذنوب لأن الأنبياء معصومون عن كبائر الإثم . ثم أردف قائلاً : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لا ينبغي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ أي أعطني يا رب ملكاً لا يكون ولا يتسهل لأحد من بعدي من الناس ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ إنك يا رب كثير الهبات لا يتعاظم عندك هبة .

والملفت للنظر أن سليمان طلب أولاً المغفرة من اللّه ثم طلب ثانياً الملك وهذا إرشاد للحرص على الدين قبل الحرص على الدنيا ، ومن جهة أخرى فإن في ذلك إعلاماً لنا بأن طلب الغفران من اللّه سبب لإفاضة الخير والرزق في الدنيا .

هذا وإنما طلب سليمان من ربه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده لأنه نشأ في بيت الملك والنبوة ، وكان وارثاً لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة على حسب ما ألفه وهو ملك زائد على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلاً على نبوته ، فاستجاب اللّه دعاءه . وكان مما أنعم اللّه عليه أيضاً : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ أي فذلل اللّه الريح لطاعته تجري ليّنة طيبة ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي وسخّر اللّه لسليمان الشياطين يبنون

له ما يشاء من المباني ، ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ وهم مردة الشياطين قيّدهم سليمان بالأغلال حتى لا يؤذوا الناس[1] ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي هذا الذي أعطيناك يا سليمان من الملك العظيم فأعطِ من شئت وامنع عطاءك من شئت ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ وإن لسليمان لقربة وكرامة عند الله ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة .

وبعد أن ذكر الله قصة داود وسليمان عقب عليهما بقصة أيوب عليه السلام وما وقع له من البلاء ، وما قابله من الصبر والاحتمال، ليبيّن لرسوله محمد ﷺ أن من سُنَّة الله أن يبتلي أنبياءه ، وفي هذا إيعاز له كي يصبر على ما يلاقيه من أذى قومه :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٤١ ـ ٤٤) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ أي تذكر يا محمد حال عبدنا أيوب وما أصيب به من البلاء واصبر كما صبر ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أي ناداه مستغيثاً به فيما تعرض له من البلاء ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ

(١) وإنا لا نعلم حقيقة تلك القيود ولا كيف تكون العقوبة ، كما لا نعلم كيف يعمل الشياطين وكيف يبنون أو يغوصون ؟ فكل ذلك في عالم لا ندرك شيئاً من أحواله وان علينا أن نؤمن بأن سليمان لم يكتف بتسخير الإنس في أعماله بل سخر معهم الجن فيما يصعب عليهم . (عن تفسير المراغي) .

وَعَذَابٍ ﴾ المس : هو الإصابة ، والنُّصْب بضم النون وسكون الصاد : التعب والمشقة . . وقد أراد أيوب بما مَسّه الشيطان ـ والله أعلم ـ هو ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويدفعه على التخلي عن الصبر وكره ما نزل به فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل .

فقد روي أن الله ابتلى أيوب في ضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما نزل به ، غير أن زوجته حفظت وُدّه لإيمانها بالله تعالى فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في بحبوحة من المال وسعة طائلة من الدنيا فسلب جميع ذلك .

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي بعد استغاثته بربه استجاب له وقال له : اركض برجلك أي اضرب برجلك الأرض[1] ففعل أيوب ذلك فنبعت عينان من الماء فاغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى عنه ظاهر دائه وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه ، وبهذا المغتسل والمشرب أَذهب الله عنه كل ما كان عليه من البلاء ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ قيل إن الله تعالى أحيا من مات من أهله وعافى المرضى وجمع عليه من تفرق منهم ، وقيل : رزقه الله أولاداً وذرية بدل ذريته الذين هلكوا ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أي زاده مثلهم فكانوا ضعفي ما كانوا عليه من قبل ابتلائه ﴿ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي وهب الله له هذه

(١) قيل إن هذا الموضع بأرض الشام يقال له الجابية .

الذرية لأجل رحمته إياه ، وليكون ذلك تذكرة وعظة يتعظ بها أصحاب العقول فيصبروا على الشدائد كما صبر .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ في الكلام هنا حذف، بيانه : أن أيوب كان قد حلف ليضربن امرأته مئة ضربة إن شفي لسبب حصل منها ، ولما كانت محسنة جعل اللّه لأيوب مخرجاً ليمينه بقوله له : خذ بيدك ضغثاً ، والضغث : قبضة من قضبان مختلفة ، أو حزمة من الحشيش ، فجمع أيوب قبضة تقدر بمئة من العيدان الرطبة فضرب بها امرأته ضربة واحدة برفق ، فبرّ بذلك اليمين الذي أقسم به وتحلل منه ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ أي أن اللّه وجد أيوب صابراً على البلاء الذي ابتلاه به ولذا مدحه بقوله : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ ﴾ نِعْمَ : كلمة تقال في المدح ، لقد مدحه اللّه بسبب صبره وبسبب أنه أواب أي كثير الرجوع إلى اللّه بالتوبة والعبادة والطاعة وهذا معناه أن كل مؤمن يتصف بصفة الصبر والرجوع إلى اللّه بالتوبة والطاعة يستحق الثناء من اللّه .

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾

شرح المفردات

أُولي الأيدي : أصحاب النعم على الناس والإحسان إليهم .

والأبصار : أي العلم والمعرفة في الدين .

أَخْلَصْنَاهم بخَالِصَةٍ : اصطفيناهم بسبب خلة خاصة .

ذِكْرَى الدَّارِ : تذكرة الدار الآخرة .

الْمُصْطَفين : المختارين .

هذا ذِكْرٌ : أي هذا المذكور من محاسنهم هو شرف لهم .

جَنَّاتِ عَدْنٍ : بساتين إقامة واستقرار .

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ : نساء قصرن طرفهن على أزواجهن .

أَتْرَابٌ : متساويات في السن .

للطَّاغِينَ : للذين تمردوا على ربهم فعصوا أمره .

لَشَرَّ مآب : لشر مرجع ومصير .

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا : يدخلونها ويقاسون حرها .

فَبِئْسَ المِهَادُ : فبئس الفراش .

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا
بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا
مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ
رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ
عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠
مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾

شرح المفردات

حَمِيمٌ : الماء الذي بلغ نهاية الحرارة .

غَسَّاقٌ : صديد أهل النار .

أَزْوَاج : أصناف أُخر من العذاب .

هَذَا فَوْجٌ : هذا جمع من أتباعكم أيها القادة .

مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ : الاقتحام الدخول في الشيء بشدة أي داخل معكم النار .

لا مَرْحَباً بِهِم : لا رحبت بهم دار العذاب .

صَالوا النَّار : واردو النار وداخلوها .

فَبِئْسَ الْقَرار : فبئس ما يستقرون به في جهنم .

زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَار : انحرفت عن رؤيتهم .

تابع سُورة صٓ

وبعد الكلام عن أيوب عليه السلام يأتي الكلام عن إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُم عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ (٤٥ ـ ٤٧) .

فاللّه يأمر رسوله محمداً بأن يذكر ما حصل لهؤلاء الأنبياء معتبراً بما كانوا يتحلون به من الصفات فهم ﴿ أولي الأيدي ﴾ أي القوة في عبادة اللّه وطاعته ، وقيل : أصحاب النعم على الناس بما أحسنوا وقدموا من خير لهم ﴿ والأبصار ﴾ أي الفقه في الدين والبصر في الحق .

ولما كانت اليد آلة لأكثر الأعمال ، والبصر آلة لأقوى الإدراكات جاء الجمال في التعبير عن العمل باليد ، وفي التعبير عن الإدراك والفهم بالبصر .

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي إنا خصصناهم واصطفيناهم بسبب خلة خاصة فيهم وهي تذكرهم للدار الآخرة والعمل لها ، وتذكيرهم الناس بها بدعوتهم للإيمان باللّه والعمل الصالح ﴿ وَإِنَّهُم عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ الاصطفاء : الاختيار ، أي أنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار وهم الفضلاء .

ويتابع القرآن فيثني أيضاً على أنبياء أُخر :

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٤٨ ـ ٤٩) .

فاللّه سبحانه يأمر رسوله محمداً بأن يذكر بالإضافة إلى من سبق هؤلاء الأنبياء الذين صبروا وتحملوا الشدائد في سبيل دين اللّه ليصبر على أذى قومه كما صبروا ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴾ وكلهم من الأنبياء الذين اختارهم اللّه لنبوته ، واصطفاهم من خلقه ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أي هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به أبداً ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وإن للمتقين الذين اتقوا اللّه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه لحسن مرجع يرجعون إليه في الآخرة وهو الجنة .

ويتابع القرآن فيذكر ما أعد اللّه للمتقين من نعيم في الآخرة :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ . مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ . إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ (٥٠ ـ ٥٤) .

فاللّه سبحانه أعد للمتقين : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ في هذه الجنان إقامة دائمة واستقرار لا يزول قد فتحت لهم أبوابها بانتظار قدومهم ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ أي يجلسون فيها متمكنين مستقرين على الأسرّة ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ أي يطلبون إحضار الفاكهة الكثيرة والشراب الكثير ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي وعندهم نساء قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يلتفتن إلى غيرهم ، وهؤلاء النسوة ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي متساويات في السن والجمال ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي هذا الذي ذكر اللّه من صفة الجنة هي التي وعد اللّه بها عباده المتقين والتي سيصيرون إليها يوم الجزاء ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ أي ما ذكر من الجنات وأوصافها هي مما يتفضل اللّه به على عباده المتقين ما له من انقطاع أبداً .

وبعد ذكر نعيم المتقين يأتي ذكر ما أعد اللّه للطغاة من العذاب الأليم :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ (٥٥ ـ ٥٧) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ هَذَا وَإِن لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ هذا : إشارة إلى ما سبق مما خص به المتقين من نعيم ، أي هذا جزاؤهم ، وإن الطغاة الذين تجاوزوا الحد في العصيان والشر لهم شر مرجع ومصير في الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ جهنم : هي دار العذاب في الآخرة التي تتأجج بالنيران يدخلها الطغاة ليكتووا بنارها ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ فبئس الفراش جهنم يفترشونها ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أي هذا العذاب فليذوقوه ، منه حميم : وهو الماء الشديد الحرارة يلجأون إلى شربه إذا أصابهم الظمأ . ومن شرابهم أيضاً الغَسَّاق : وهو ما يسيل من جلود أهل جهنم من صديد بفعل النيران ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ الشكل : الشبيه ، أي ولهم أنواع أخرى من العذاب شبيهة بما ذكر في الفظاعة والهول ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي هذا العذاب ألوان وأنواع .

ثم ينتقل القرآن إلى وصف حوار يكون في جهنم بين أسياد الكفر وأتباعهم :

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ . قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ . قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ . وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُم سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ . إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (٥٩ ـ ٦٤) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ أي هذه فرقة وجماعة مقتحمة معكم ، أيها الطاغون ، النار . هذا القول حكاية لما تقوله خزنة جهنم لرؤساء الكافرين بعد أن يدخلوا النار ، ثم يدخل أتباعهم بعدهم إلى النار ويلحقوا بهم . فيجيب الرؤساء : ﴿ لَا مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ ومرحباً تستعمل في تحية الوارد والدعاء بالخير ، أي أتيت رحباً وسعة ، وأنزل في الرحب[1] والسعة فإذا أردت الدعاء بالسوء والطرد أدخلت عليها « لا » كما في الآية أي لا اتسعت مَنازلهم في النار ولا استحقوا تكريماً ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ إنهم داخلو النار ومقاسو حرها مثلنا ﴿ قَالُوا : بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ أي قال الأتباع لرؤسائهم : بل أنتم لا رَحُبت بكم الأرض ولا اتسعت، وهذا ينبىء على ما بينهم من نفور وكراهية شديدة ، ويضيف الأتباع قائلين : ﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب بدعائكم إياناً إلى الكفر ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ فبئس المكان جهنم لنا ولكم ﴿ قالوا : رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا ﴾ أي قال الأتباع مخاطبين ربهم : يا رب من قدم لنا هذا العذاب بدعوته إيانا إلى المعاصي ﴿ فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾ والضعف من العذاب أن يزيد عليه مثله ، أي فضاعف يا رب العذاب في النار لمن أغوانا .

في هذه الآيات إرشاد للناس بأن لا يتبعوا قادتهم وحكامهم في معصية اللَّه لأن ذلك يوردهم عذاب اللَّه في الآخرة . ومن وصايا النبي ﷺ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

﴿ وَقَالُوا : مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأَشْرَارِ ﴾ هذا من قول رؤساء الكافرين ينظرون إلى النار فلا يرون من كان يخالفهم في العقيدة

(١) الرحب والرحيب : الشيء الواسع .

من المؤمنين الذين كانوا في نظرهم من الأشرار ، أمثال : عمار ، وخباب ،وصهيب ، وبلال ، وسلمان . ويضيف الرؤساء قولهم : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قالوا ذلك إنكاراً على أنفسهم وتوبيخاً لها من السخرية بالمؤمنين ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ هذا القول متصل بقولهم : ما لنا لا نرى ، والمعنى : ما لنا لا نرى هؤلاء المؤمنين في النار أليسوا هم فيها فلذلك لا نراهم ، أم هم دخلوا النار فاضطربت أنظارنا وانحرفت عن رؤيتهم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ أي إن الذي حكي من أحوالهم لحقٌّ لا بد أن يتكلموا به ولا بد من وقوعه ، وهو : ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي الخصومة والنزاع بين الرؤساء والمتبوعين في جهنم .

ثم يخاطب اللَّه رسوله محمداً بأن يحذر قومه من عاقبة الكفر ، وأن يدعوهم للإيمان باللَّه وحده :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٦٥ ، ٦٦) .

أي قل يا محمد لقومك المشركين ﴿ إنما أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ أي مخوف لكم من عقاب اللَّه على كفركم فبادروا إلى التوبة ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وما من معبود تصلح له العبادة وتنبغي له الربوبية إلاّ اللَّه الذي يدين له كل شيء ﴿ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الواحد الذي لا ينبغي أن يكون له في ملكه شريك ، القهار : أي الغالب جميع الخلق الذي قهرهم بسلطانه وقدرته . وقهّار صيغة للمبالغة ﴿ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي مالك السموات والأرض وما بينهما من خلائق ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أي القوي الغالب في نقمته على أهل الكفر ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ الساتر لذنوب عبادة التائبين المتجاوز عن خطاياهم . وغفار صيغة للمبالغة أي كثير الغفران .

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ
مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى
خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ
مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ

شرح المفردات

هُو نَبأٌ عَظِيمٌ : هذا القرآن خبر عظيم .

الملأ الأعلى : هم الملائكة .

يَخْتَصِمُونَ : يتجادلون في شأن آدم وخلافته .

سَوَّيْتُهُ : أتممت خلقه بالصورة الإنسانية .

مِنْ رُوحي : من قدرتي .

سَاجِدِين : سجود تحية لا سجود عبادة .

رَجِيمٌ : مطرود من كل خير وبركة ملعون من اللّه .

فَأَنْظِرْني : فأمهلني في الأجل .

يوم الوقت المعلوم : أي يوم تبعث خلقك .

ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ
وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

شرح المفردات

فَبِعِزَّتِكَ : قَسَمٌ بسلطان اللّه وقهره وقدرته .

لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين : لأضلن بني آدم أجمعين .

الْمُخْلَصِين : الذين أخلصتهم يا رب لعبادتك .

الْمُتَكَلِّفِينَ : المتصنعين المفترين على اللّه بادعاء النبوة .

نَبَأَهُ : صدق أخباره .

تابع سورة صۤ

ثم يعرض القرآن ذلك الحوار الذي كان بين الملائكة في شأن خلق آدم ويبين كيفية خلقه، ودعوة اللّه للملائكة للسجود له وامتناع إبليس، وهذه أمور لا تعرف إلّا عن طريق الوحي الإلّهي الذي أوحاه اللّه لرسوله محمد ﷺ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ (٦٧ - ٧٤) .

فاللّه سبحانه يقول: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي قل يا محمد لقومك المكذبين بما جئت به من عند اللّه بأن هذا القرآن هو خبر عظيم ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أنتم عنه منصرفون لا تعملون به، ولا تصدقون بما فيه من حجج اللّه وآياته ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الملأ الأعلى: هم الملائكة، أي وقل لهم ما كان لي من علم بأخبار الملائكة وقت اختصامهم[1] في شأن آدم وامتناع إبليس عن السجود له، والاختصام هنا بمعنى الحوار والمجادلة. ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي إنما علمت بهذه المخاصمة بوحي من اللّه تعالى لأنني نبي ،

(١) الخصومة في اللغة: الجدل، يقال خاصمه خصاماً ومخاصمة غلبه بالحجة. ومجادلة الملائكة تمثل حين قال اللّه تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ فقال الملائكة: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فهذا السؤال والجواب شبيه بالمخاصمة على سبيل المجاز.

وقد أوحى اللّه إليَّ أن أنذركم وأُخوفكم من عصيان اللّه وأبيّن لكم ما يجب أن تؤمنوا به من العقائد وما يجب أن تأتوه من الأعمال أو تجتنبوه .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ﴾ أي آذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة بأنه سيخلق إنساناً ـ وهو آدم ـ من طين، والطين هو التراب المختلط بالماء ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ أي فإذا سويت خلقه، وعدّلت صورته، ونفخت فيه من قدرتي، أو بعبارة أخرى: فإذا أفضت عليه ما يحيا به من الروح التي هي من أمري[1] ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[2] فخروا له ساجدين سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة لأن سجود العبادة لا يكون إلّا للّه سبحانه ﴿ فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ فلما سوّى اللّه خلق ذلك البشر وهو آدم، ونفخ فيه من روحه، سجد له الملائكة كلهم أجمعون، وقد أكد القرآن ذلك بلفظين مبالغة في التعميم وهو لفظ كلهم، ولفظ أجمعون. فكلهم تفيد الشمول وأجمعون تفيد أنهم سجدوا في وقت واحد لا على فترات ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ غير إن إبليس فإنه لم يسجد تعظماً وتكبراً ﴿ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ وكان إبليس ممن جحد ربوبية اللّه وأنكر ما يجب الإقرار له من الإذعان والطاعة .

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله اللّه سبحانه لإبليس عندما تمرد على أمره بالسجود له :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ

(١) جاء في القرآن: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ .

(٢) سجد يسجد سجوداً وضع جبهته على الأرض، ويكون السجود على جهة الخضوع والانقياد والتذلل .

مِنَ العَالِينَ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٧٥ - ٧٨) .

فاللّه سبحانه يقول مخاطباً إبليس : ما صرفك وصدَّك عن أن تسجد لآدم وقد أمرتك به ، ولم يذكر هنا آدم وإنما قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي لما توليت خلقه بيدي ، وقد أضاف اللّه خلق الإنسان إلى نفسه تكريماً لآدم ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ ﴾ أي أتعظمت بنفسك عن السجود لآدم فتركت السجود له استكباراً عليه ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ ﴾ أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود له ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ ﴾ أي قال إبليس : فعلت ذلك فلم أسجد لآدم لأني خير منه فقد خلقتني من نار ﴿ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[1] وخلقت آدم من تراب وماء ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي قال اللّه لإبليس : اخرج من الجنة فإنك مشتوم ملعون مطرود من كل خير وكرامة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة اللّه ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ إلى يوم مجازاة العباد ومحاسبتهم .

ثم يحكي لنا القرآن بعد ذلك جواب إبليس بعد أن طرده اللّه من الجنة وخصه بلعنته :

(١) إن قول ابليس هذا هو ادعاء لا أساس له من الصحة ، فالنار والطين من مخلوقات اللّه ، والأفضلية تكون بتفضيل اللّه لا باختياره سواه . فالطين مؤلف من مادتين ماء وتراب ومنهما خلق اللّه الإنسان والحيوان والنبات.والنار ليس لها إلا الاشتعال من مادة الأرض وهي الحطب والفحم وسوى ذلك .
ولنفرض أن إبليس خير من آدم فإن أمر اللّه مقدم على كل اعتبار ومن هنا كان عدم امتثاله لأمر ربه سبباً لطرده من رحمة اللّه .

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ المعْلُومِ . قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ . قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٧٩ - ٨٥) .

فإبليس يخاطب ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرني ﴾ أي لا تهلكني عاجلاً وأخرني في الأجل ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ أي قال اللّه : إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمة التكوين ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ إلى ذلك الوقت الذي جعله اللّه أجلاً ووقتاً لهلاكه وفناء الخلائق ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الباء الداخلة على عزتك للقسم أي حلف إبليس بعزة اللّه وسلطانه وجلاله على أن يُضِلّ بني آدم أجمعين بتزيين الشهوات لهم وإدخال الشبه عليهم ، ثم استثنى إبليس من لا يستطيع إضلاله ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمخلَصِينَ ﴾ أي إلاّ من أخلصته منهم يا رب لعبادتك ، وعصمته من إضلالي ولم تجعل لي عليه سبيلاً فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي قال اللّه : الحق مني ، وأقول الحق ، أو بمعنى : أنا الحق والحق أقول ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لأملأن جهنم منك يا إبليس وممن تبعك من ذرية آدم أجمعين بسبب ما زينته لهم من الضلال .

ويختم اللّه هذه السورة مؤكداً نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي من عند اللّه :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٨٦ - ٨٨) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي قل يا محمد لقومك ما أسألكم على ما أمرت بتبليغه إليكم من وحي اللّه أجراً ولا مكافأة ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ وما أنا من المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله فأنتحل النبوة وأدعوكم إلى غير ما أمرني اللّه بالدعوة إليه ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي إن القرآن الذي أنزل عليَّ ما هو إلاّ تذكير من اللّه وعظة للعالمين جميعاً ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ولتعلمن أيها المكذبون به صدق ما اشتمل عليه من وعد ووعيد وإخبار عن أمور مستقبلة وآيات كونية بعد وقت قريب . هذه الآية التي اختتمت بها هذه السورة معجزة من معجزات القرآن ، لقد نزلت هذه الآية بمكة حيث كان الإسلام ضعيفاً مضطهداً من أسياد الكفر ، ولكن بعد فترة وجيزة عزّ الإسلام واندحر الكافرون، وهلك أو أسلم الكثير من أسيادهم ، ورفرفت راية الإسلام خفاقة في سائر جزيرة العرب وامتدت بعد ذلك إلى أنحاء العالم ، وها هو القرآن الآن في عصر العلم والذرة يظهر إعجازه بما نبّأ به من وعد ووعيد ، ومن إشارات إلى كثير من حقائق الكون التي كانت مجهولة في عصر تنزيل القرآن ، أضف إلى ذلك ما حواه من آداب وتشريع بذّ فيه الكتب الإلّهية السابقة ، وتفوق به على أساطين المشرعين من قبله ومن بعده ، وما ذلك إلاّ لأنه كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه .

حول قراءة سورة يسٓ عند الموت

من الملاحظ أن كثيراً من المسلمين يقرأون هذه السورة عند موت أقاربهم ويهدون ثوابها لهم . فما مصدر ذلك ؟ إنهم يفعلون هذا مسترشدين بأحاديث وردت عن رسول اللّه ﷺ في هذا السبيل كقوله :

« يسٓ قلب القرآن لا يقرؤها عبد يريد اللّه والدار الآخرة إلاّ غفر له ما تقدم من ذنبه فاقرأوها على موتاكم »[١] .

« ما من ميت يقرأ عنده يٓس إلاّ هوّن اللّه عليه »[٢] .

« سورة يٓس تدعى في التوراة المُعِمّة تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة وتكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة »[٣] .

« من زار قبر والديه أو أحدهما في كل جمعة فقرأ عندهما يٓس غفر اللّه بعدد كل حرف منها »[٤] .

هذه الأحاديث الواردة في فضل قراءة هذه السورة أسانيدها ضعيفة ولكن يقوي بعضها بعضاً والعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال لا مانع منه فعليه إذا قرئت هذه السورة لإيصال ثوابها إلى الأموات فلا مانع من ذلك ، وكل الأعمال الصالحة من حج وصدقة وبر إذا أراد فاعلها إهداء ثوابها للميت فإنه يصل ، والشواهد على ذلك كثيرة في الأحاديث الشريفة .

ولا يجوز أن يفهم من هذا أن قراءة القرآن وإهداء ثوابه إلى الميت يغسل كل ذنوبه صغيرها وكبيرها ويسقط ما عليه من حقوق للعباد أو تقصير في أداء فرائض اللّه ، إن من يفهم هذا يكون مسرفاً في ظنه مغالياً في تقديره ذلك أن

---

(١) أخرج هذا الحديث أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والطبراني .

(٢) أخرجه ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء . (٣) أخرجه البيهقي .

(٤) أخرجه ابن النجار في تاريخه عن أبي بكر الصديق .

اللّه عز وجل يغفر الصغائر بتجنب الكبائر . أما الكبائر فأمرها متروك إلى عفو اللّه ورحمته وعلى هذا ينبغي أن يظل المؤمن في مقام الخوف من عقاب اللّه والرجاء في رحمة اللّه وأن لا يركن إلى أن عملاً من الأعمال الصالحة يزيل إثم الكبائر ويمحو آثارها باستثناء توبة الإنسان النصوح المقترنة بالإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على عدم العودة إليه . ومع أن التوبة الخالصة تمحو الذنوب فإنها لا تسقط حقوق العباد ومظالمهم فإن هذه لا تسقط إلّا برد الحقوق إلى أصحابها أو بعفو أصحاب هذه الحقوق عمن ظلمهم وأساء إليهم .

إذا تقرر هذا فإن الرجاء في اللّه أن تكون قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت مخففة لذنوبه أو زيادة في حسناته واللّه أعلم .

وبهذه المناسبة نتعرض إلى ما يفعله الناس من وضع الأشرطة المسجلة لقراءة القرآن في السيارات الحاملة للجنائز والمتقدمة عليهم فهذا شيء لا أصل له في الدين ولا يحسن فعله الآن لأن الناس أصبحوا يتشاءمون من هذه الأصوات إذ أنهم يعدونها نذير شؤم من الموت . ومثل ذلك مكبرات الصوت التي يضعها البعض على شرفات المنازل لإسماع أهل الحي بموت قريبهم ، فهذا لم يكن من الدين يوماً ما ولا أصل له ، كما أن ذلك يجعل القرآن مناسبة للموت فقط مما يجعل في نفوس الناس كراهية سماع القرآن والنفور منه . فقراءة القرآن هي أفضل الأعمال الصالحة التي يُتقرب بها إلى اللّه وهي تحتاج إلى أدب واحترام وإنصات ، وإمعان فكر من السامعين في كلام اللّه لا كما يفعله الناس عند تلاوة القرآن في مكبرات الصوت ، فنراهم منهمكين في الكلام الدنيوي والإعراض عن سماع القرآن والتفكر في معانيه ، وهذا الحكم المنوه به لا يختلف عن وضع الناس لمكبرات الصوت في مآذن المساجد وتلاوة القرآن فيها حيث يذهب الصوت بلا فائدة في ضجيج السيارات وزحمة العمل ولا يفهم منه المستمع شيئاً بل يكون هذا الصوت سبباً في تفويت كثير من الفوائد على من يصلي في بيته أو في مسجده أو من يقرأ القرآن منفرداً ، أو لطالب علم مستغرق في درسه فلكل هذه الحيثيات يجب الإقلاع عن التلاوة المذاعة .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

التفسير الكبير للفخر الرازي .

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .

لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .

فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .

تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .

روح المعاني للألوسي .

تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .

في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .

تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .

صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .

كتب للمؤلف

- تفسير جزء عمّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طه

الفهرس

اسم السورة .... رقم السورة



هذا التفسير

- يعرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحاضر .
- يُعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون :

دار العلم للملايين

بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥